الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منشورات الاختلاف

فيرونيك أولمي

شغفها



رواية

ترجمة: إسكندر حبش


mohamed khatab

شَغَفُهَا



يضم هذا الكتاب «شغفها»

ترجمة الأصل الفرنسي

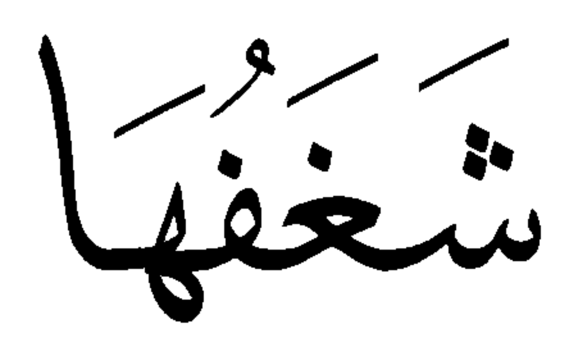
Sa Passion

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

BERNARD GRASSET - PARIS

Cet ouvrage publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Shéhadé, bénéficie du soutien du Ministère des Affaires Etrangères et du Service de Coopération et d'action Culturelle de l'Ambassade de France au Liban.

يصدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الفرنسية في لبنان، قسم التعاون والعمل الثقافي وذلك في إطار برنامج جورج شحاده للمساعدة على النشر.



رواية

فيرونيك أولمي

ترجمة: إسكندر حبش



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

منشورات الاختلاف

الطبعة الأولى
1429هـ - 2008م

ردمك 978-9953-87-286-5

منشورات الاختلاف

14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 5574 - 13 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الالكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

إلى آن

فأنكرت سارة قائلة: «لم اضحك»، لأنها خافت،
فقال: «لا بل ضحكت»

سفر التكوين
الإصحاح الثامن عشر، الآية 15

I

ابتسمت هيلين للرجل المسرور الذي كان يشعرها بالسأم منذ مطلع السهرة، مررت بخفة إصبعها على حافة كأسها، ولثانية ترددت بين أن تنهض لتذهب إلى المرحاض أو أن تسأل الصحافي الجالس إلى يمينها عن رأيه بالمجلات الالكترونية. سيئة. سيئة. كانت تعرف بأنه سيعيد على مسامعها المثل الأميركي: "حتى في نيو أورليانز وعند أشدّ لحظات الفياضانات، يشتري الناس صحفهم اليومية". رائع. أمر مثالي. كانت المراحيض في عمق الصالة، إلى اليسار، مثما يتوجب عليها أن تكون، بيد أنها لم تكن ترغب في أن تمرّ أمام طاولة منظمي معرض الكتاب، كما أمام طاولة الهيئة الراعية.

أجاب الرجل المسرور، الذي يدفع إلى السأم، على ابتسامتها، دافعا الجميع إلى الضحك حين أعلن أنه بدءا من صباح الغد سيذهب إلى الصيد - صيد الكُتّاب بالطبع، إذ لسنا في مدينة سولوني، وفي شهر نوفومبر، من أجل لا شيء. بدا الأمر مضحكا جدا. طلبوا كأس كونياك، فنجانيّ قهوة عادية، وأخرى خالية من الكافيين. بدأت النساء بالتدخين. بالطبع يقال "من يصدق كم أن النساء يدخنّ أكثر من الرجال"، إلا أن أحدا لا يجرؤ على الحديث عن المعالجة بالإبر أو عن وضع الضمادات، إذ فات الوقت، كما أن الأمر ليس مقنعا جدا. كل واحد كان يتساءل من سيدفع الفاتورة، لمن سيكون هذا الشرف.

لاحظت أن وجه الرجل المسرور، الذي يدفع إلى السأم،

يشبه وجه بينوكيو، ذلك المخبيث الكبير. لو كنت رسامة كاريكاتور، لرسمته في الحال، هنا، فوق شرشف طاولة نُزل الأسد الذهبي، الورقي. لكن من كان من الموجودين هو اللعبة الخشبية؟ من هو الجاهل الذي لا يذهب إلى المدرسة؟

- من يقيم في الأسد الذهبي؟

السؤال الذي طرحته امرأة صهباء، ذات عينين نصف مغمضتين وشفاه شاحبة تدخن سيجارة ذات تبغ أشقر، بأظافر مطلية، أثار الجميع. كان الفندق يتمتع بشهرة كبيرة وهو قريب من مركز المدينة حيث يقام معرض الكتاب. كان فاخرا برغم تقادم الزمن عليه، ولا يضم سوى 15 غرفة. في كل عام، كان الجميع يلهون في تخمين من حظي بالشرف، أو من تمتع بالسرعة، ليحجز فيه قبل الآخرين.

- أتذكرون العام الماضي، الزوجة السابقة للقديس مارتان؟

آه، أجل! العام الماضي، الزوجة السابقة للقديس مارتان. يعرف الجميع هذه القصة، لكن كل واحد يحب أن يرويها على طريقته الخاصة، وذلك بحسب الظروف والمستمعين، لكن من كان شاهدا عليها، فلا أحد يعرف. لا أهمية لذلك. يتملك الجميع الانطباع بأنهم شاهدوا هذه الكارثة. طلبوا مجددا، كأسي كونياك وشرابا ساخنا - تضاعفت الضحكات "شرابا ساخنا! ما هذه الفكرة". هل سنذهب جميعا إلى الحانة، تلك العلبة الليلية الشهيرة، حيث نتسلى كثيرا. آه كلا، حقا إن الريف مساء الجمعة، مثير للعواطف، "لا بدّ أن يكون الزنا في الريف مرعبا"، تقول كاتبة سيرة إلفيس بريسلي، فعاد الجميع إلى

الضحك من جديد وهم يفكرون بزوجة القديس مارتان السابقة.

هي أيضا رغبت في شراب ساخن، إلا أن الأمر كان سيبدو مرعبا لو تجرأت على طلب ذلك، ما الذي يفعله كاتب افتتاحية "بوان دو جور" كي يحتمل التهكمات التي رافقت طلبه، ما الذي يفعله الناس كي يبقوا هادئي الأعصاب؟

وحدهم منظمو معرض الكتاب يقيمون في "الأسد الذهبي". يبقى الأمر بينهم، كل شيء فيما بينهم، كما العادة. سيبدو الأمر أقل فكاهة بكثير. من البديهي ثمة تبادل مصالح في الأمر، فالاعلان عن النزل ذي النجوم الأربع أسفل ملصق معرض الكتاب لم يغب عن نظر أحد، قبل ذلك كان الأمر مستحيلا من جراء الحقوق وهذا التفوق. لقد وقع المعرض ضحية نجاحه، هذا كل ما في الأمر، إذ بدأ عدد الناس يزداد، وبدأت المشكلات تتكاثر، بدأ المال يزداد، لكن في النهاية، أي كاتب يبيع حقا؟ من عدا نجوم التلفزيون؟ كلا لقد تغيّر، تغيّر كثيرا، والمهنة بدأت تصبح أصعب أكثر فأكثر. الناس أصبحوا يقرأون بشكل أقل، إننا في مجتمع الصورة، والمرأة الصهباء ذات الشفتين الشاحبتين تحاول أن تشرح أن ولدها يبرمج على الكومبوتر أفلاما لم تعرض بعد في الصالات، بينما يقول كاتب افتتاحيات "البوان دو جور" بأن ابنة زوجته الثانية تقرصن الموسيقى. كل واحد كان يذهب باتجاه حكايته وإنكاره، بينما تعلن كاتبة سيرة إلفيس بريسلي عن مرارتها بأن القانون حول استعارة الكتب المدفوعة، لم يمر.

أحست هيلين بأن أنفاسها انقطعت. بينما كانوا يصرخون هول الفضيحة وهم يتجرعون الكونياك فشعرت بأنها سقطت.

سقطت في حفرة لتوها. تجمدت. تخثرت. آلمها قلبها. لماذا لا تستطيع أن تقول بأنها غير موافقة؟ بأنها من دون الاستعارة المجانية من المكتبة لم يكن باستطاعتها أن تقرأ ثلث الكتب التي أنقذت طفولتها. كان باستطاعتها أن تقول وهي تبتسم: "من دون المكتبة البلدية في بربينيان لما أصبحت كاتبة"، لكن ومن دون شك لبدأت عندها الغمزات والابتسامات الخفيّة، بالتأكيد لظنوا بأن الأمر ليس سيئا إلى هذا الحد - إذ لا علاقة لها البتة بهذه المهنة - لكانوا تبادلوا هذه الأفكار بالنظر إلى بعضهم البعض فقط، ولو امتلكت الشجاعة بأن تكمل لاعترفت بأنها لم تكمل دراستها مطلقا، لو حدث ذلك، لأشارت إليها ابتسامة الرجل الخبيث الكبير، الرجل الذي يدفع إلى السأم، المسرور، بأنها كانت حمار السهرة.

لذلك دعتهم يتحدثون، تقبّلت فكرة أن الفقر لا يعوض أبدا. شعرت بالعار من هذا الصمت.

فرغت الطاولات من حولها. لم يكف الجميع عن إلقاء تحيات الوداع على بعضهم البعض. عيّنوا مواعيد لقاء. تبادلوا الاتفاقات. ثمة لغة مشتركة تجمعهم، مفردات متعارف عليها، حميميات مشتركة. كانوا يقولون: "سلامي إلى فلان"، قل لفلانة بأنها جبانة". تهاني متبادلة. دعوات مشتركة. كل شيء في مكانه. لكل شيء مهمته المحددة. البداهة، هدوء البداهة.

ابتسمت مجددا للرجل الذي كان يشعرها بالسأم منذ بداية السهرة، حاولت أن تخفي تثاؤبها، أن تقصيه، أن تخنقه وهي تعض على شفتيها قليلا، إلا أن الدموع طفحت من عينيها.

"هيلين! لا تقولي لي بأنك متعبة!" قال لها وهو ينقلب على كرسيه. "يفترض تقليد معرض كتاب R بأن نرقص عند لولو حتى الفجر".

الجميع متفقون على ذلك. هي أيضا. أي روعة في أن تكون موافقة معهم! أن تملك المزاج عينه. أن تتبع الحركة. كانت تعشق الرقص. أن تغلق عينها وأن ترقص لساعات طويلة. أن تتخلع، أن تتفكك مفاصلها، أن تصاب بالعمى. أن تتعرق. أن تعرض نفسها. أن تنسى ذاتها.

تذكروا الليلة البيضاء التي حدثت قبل عام، هذا أمر مشترك فيما بينهم: الليلة البيضاء قبل عام، حين لم يكن معرض كتاب R قد أصبح على ما هو عليه الآن، حين لم يكن بعد ضحية نجاحه، حين كان بإمكان المرء أن يستأجر غرفة في الأسد الذهبي. أصبحوا مستأجري هذا الماضي، مستأجرين مصابين بالغيرة. يتحدثون عنه وكأنه كنز لا يعرفه سواهم، لم يره غيرهم. من هنا كان وصف السهرة مجددا عملية تنقذ العشاء من السأم وتدفع الآخرين كما أنفسهم إلى الاعتقاد بأنهم كانوا سعداء.

كانوا آخر زبائن النُزل. إذ تخلص الخدم من فضلات الطعام وأعدّوا الطاولات لفطور الصباح، فناجين بيضاء مقلوبة فوق الصحون الصغيرة، علب السكر الفضية والزهور القماشية.

لم يبق أمامهم سوى الرحيل، هضم ما أكلوه، النوم، أن يتغوطوا ومن ثم العودة. قهوة ساخنة. غيمة من حليب. بعض السكاكر والقليل من الاسبرين ليخففوا مرحلة ما بعد الشراب. إلى اللقاء، إلى العام القادم.

حلّ الضباب. ثمة القليل من الأنوار، وكلّ الأضواء كانت مخفيّة. الفوانيس. إشارة الصيدلية، نيون مواقف الباصات. حتى القمر بدا منتفخا من بخار الماء. البرد كان قاطعا، يسقط على الأكتاف، على الحلق، يجبر الأجساد على التقلص والوجوه على الانحناء.

كانوا بحلة جديدة، توجب عليهم طلب سيارات أجرة. تأخروا في الوصول، إذ كانوا يجرّون أنفسهم على الرصيف، بينما تردد آخرون في العودة إلى الأسد الذهبي للانتظار، في حين أن فئة ثالثة كانت تبحث عن صرّاف آلي. الليل الثلجي والرطب أحال كل عبارة من عباراتهم إلى أمر غير واقعي، بعيد عنهم، أحالهم بعيدين عن حركاتهم. بدا البولفار معتما وقاحلا وكأنه موجود وسط لا مكان، إذ وحدها إشارات الاستدلال كانت تظهر: A 10 تور، باريس، N20، إيتامب، أورليان، إشارات تدل إلى وجود المكان الحقيقي، إلى احتمالاته الممكنة. "بالامكان أن تتنفس هنا بشكل أفضل من باريس!" قال أحد المتفائلين الذين لا يشعرون بالبرد، بينما اقترح عليه آخر الذهاب مشيا إلى عند لولو. أعقب ذلك الأقاويل الساخرة، التحديات الصغيرة الممجوجة، ولينتهي الأمر بهم إلى طلب سيارات الأجرة.

أول من وصل كانت سيارة ميرسيدس قديمة رمادية اللون، جلست هيلين في المقعد الأمامي، بينما جلس ثلاثة آخرون في

الخلف، هنأوا بعضهم لأن أربعتهم استطاعوا تقاسم السيارة، بالتأكيد الأمر أسهل ممّا هو عليه في باريس، قال السائق إن ما يكسبه من مال خلال أيام معرض الكتاب الثلاثة يوازي ما يكسبه خلال شهر عادي.

رنّ هاتف هيلين المحمول، مشيرا إلى استلامها رسالة جديدة. إنه لحن باتريك الخاص، اللحن الذي لم تسمعه منذ عشرة أيام، منذ أن غادرته آمرة إياه أن ينساها، أن ينساها بالكامل، أن لا يحاول رؤيتها من جديد أو أن يكلمها أو أن يكتب لها. نزعت قفازيها برعونة، بسرعة، علا الاحمرار خديها للحال، بدأت أوجاع الرأس، الأحاسيس التي لا تستطيع السيطرة عليها. بعد أن فتشت حقيبتها - المحفظة، الفوط الصحية، المفاتيح، أحمر الشفاه، بطاقات الموقف - وجدت هاتفها أخيرا.

كانت تجهل ما كانت تتمناه، ما كانت تفضله في العمق: أن يخيب أملها فعلا برسالته لتشعر بالراحة كي تهنئ نفسها بتركها هذا الرجل وبأنها لا تزال تقف على قدميها منذ عشرة أيام، أم أنها تفضل كلمة تعيد وصل كل شيء، الجملة السحرية، الإعلان الذي كانت تنتظره منذ بداية علاقتهما: "أصبحت حرا".

- هل ندخل أم ننتظرهم على الرصيف؟

- ننتظرهم.

- يعرفون بأننا وصلنا. لندخل.

- لكن ليس لديهم أي سيارة، كيف سيعلموننا بوصولهم، الهواتف المحمولة لا تعمل عند لولو، ألا تذكرون ما حصل

العام الماضي

- ادخلوا، سأنتظرهم أنا، اننا نتنفس هنا بشكل أفضل من باريس، من المفيد جدا أن نكون في الخارج.

- حسن ستنتظرهم، أما نحن فسندخل، هل تأتين معنا يا هيلين؟

- هيلين؟ هل ستأتين؟

"أنا شخص آخر. شخص يستطيع احتمال كل شيء. أنا شخص هادئ وغير مبال. خفيف كلّ هذا الأمر ولا أهمية إن كنت سأموت غدا. كلّنا سنكون أمواتا غدا، لا أهمية للأمر".

- لقد سوّيت حساب السيارة. ألن تأتين؟

نظرت بدهشة إلى كاتبة سيرة إلفيس بريسلي التي كانت تبدو سخيفة جدا بقبعتها الفرو، إلا أنها مع ذلك، كانت لطيفة جدا. لِمَ تهتم هذه الفتاة بهيلين. لِمَ هذه اللطافة المثيرة للشبهة؟

- حسن. أشعر بالبرد، كما ترغبين!

- سأعود إلى الفندق.

بالكاد نظرتا إلى بعضهما، وبالكاد اكتشفتا - بدهشة - أنهما غير مباليتين. لا أحد كي يقول "آسف"، كي يشتاق إليها أحد. إلا هو. هو الذي كتب: "اشتاق.." بدون "ك". الخطأ الإملائي يعني العاطفة، يعني رسالة عاشقة ومتوترة... وكان... أجل... كان... من جديد يبدو الأمر رائعا... للحال. بدون تردد، بدون ندم. رائع.

- خذني إلى "الهوم".

بالطبع كان معرض الكتاب نعمة بالنسبة إلى سائقي

التاكسي. انسابت الميرسيدس القديمة بهدوء في كثافة الضباب السميك ما ان غادرت المدينة. المصابيح البيضاء كانت الثقوب الوحيدة في هذه الغيوم النازلة إلى الأرض، هذه الحقول الفارغة المجمّدة، هذه الأشياء السوداء مثل تهديدات إلى جانبي الطريق، المقاطعة الصغيرة التي تقود إلى "هوم"، الفندق العادي الموجود على بعد ستة كيلومترات من R.

كانا قد غادرا المنطقة الصناعية، المواقف، الاعلانات الضخمة حول "تشجيعا لضلع الثور"، "نادي الإيروسية والجوارب". أحيانا يُسمع صوت كلب من دون معرفة من أين يعلو نباحه، فراشات ليل تنهرس على الدراءة. أكملت المصابيح فتحتها بينما حرارة السيارة تحمي كل شيء.

" أنا شخص آخر، للآسف، سأكون غير مبالية وهادئة وواثقة من نفسي حين أكون ميتة، وسأكون ميتة غدا، نعم غدا سأكون عقلانية".

بدت الطريق لا نهائية. استعجلت هيلين إمكانية الحديث مع باتريك، أن تقول له بأنها استلمت رسالته وبأنها تشتاق له أيضا، كثيرا، كثيرا جدا! سيعتقد أنها لم تستلم رسالته، أو بأنها لا ترغب في الإجابة، يشعر بالخيبة، سيحنق، سيتعذب، سيشعر بالشقاء، لكنها لم تجرؤ على كتابة ذلك، على كتابة هذا الطِعم، لماذا؟ هل فكّر بالأمر، هل قام بخياره، هل ينتظر موافقتها، حبها، كي يقطع مع حياته الراهنة، مع امرأته، مع منزلهما المشترك، مع أطفاله الثلاثة، مع هذه الحياة التي بناها وهو يحلم، لكنها ألم تكن سوى كابوس صاف؟

- إذا، لن تذهبين إلى الرقص؟ ألا تحبينه؟ أنا أيضا، أقول لك أنا أيضا لم أعد أحب الرقص. أنا مصاب بالربو، لذلك وبالضرورة، تلك العلب الليلية، مع كل ذاك الدخان، إنه يخيفني. تأخذ عليّ زوجتي ذلك، آه إنها راقصة حقيقية، لكنني أفضل الصّيد، وعطلة الأسبوع هذه تبدو استثنائية. هه، في ثلاثة أيام، أكسب من المال ما أكسبه عادة في شهر كامل، لكن الأحد القادم سأكون أول شخص يقف على الجسر، أجل هذا هو الأمر. في أيّ حال، حين أجلب السِمان لزوجتي تبدو سعيدة، لكن هذه العلب العابقة بالدخان، آه، كلا، لا أستطيع، لا أستطيع.

أليس عليها أن تكتب له الآن رسالة هاتفية، أن تعلمه بأنها استلمت رسالته، بأن لا ينام، بأن لا يغضب منها أبدا، بأنها ستتصل به، بأنها على طريق المقاطعة التي تقودها إلى الفندق...؟

- أما زال بعيدا؟

- دقيقتان! هل تشعرين بالنعاس؟ ستشعرين بالراحة هناك، إنه هادئ، فندق صغير في قلب الريف، إنه مختلف عن باريس! التلوث، عجقة السير...آه يا الهي!

"أي أبله، هذا السائق، أي ساذج هذا الصيّاد المسكين، أتخيله وهو يقطع طيور السمان، وقد احتفظت زوجته بمريولها، بينما يلتقط ابنه صورة لهما. "سِمان أبي".فندق موجود في قلب الريف، إيه، بلى، هذا هو، ما نفع أن ينام المرء في لا مكان بينما هناك حانات مليئة بالدخان، بالمصابيح المضاءة،

بالقطارات التي تطلق صافراتها، بالسكارى الذين يصرخون، ما نفع أن نغلق على أنفسنا في الريف في عزّ شهر نوفمبر؟

وكان بعيدا، يا الهي كم وجدته بعيدا. بعيدا عن المدينة، بعيدا عن المحطة، بعيدا عن الأوتوستراد، بعيدا عن البيوت الصغيرة، عن المنازل ذات الحدائق وأماكن الشواء والأراجيح والمطابخ المرتبة والكاراجات، أجل، حتى مرأى منزل لكان طمأنها، لكان جعل لديها نقطة استدلال في فقاعة الضباب والجليد هذه، وكل هذه الحيوانات التي تتخيلها، هذه السمان والخنازير البرّية التي تستعيد قوتها قبل أن تسلخ عند الفجر، هذه البهائم التي لم تنم أبدا بشكل عميق، التي لم تعرف الطمأنينة أبدا، هذه البهائم المطاردة بشكل أبدي، تعرف أنها موجودة هنا، حول المكان، مختبئة، عينها مفتوحة، أذناها واقفتان وتتحركان، تشعر بالقشعريرة، تنفسها حار.. كم يلزمنا من الوقت بعد؟

"لو أكتب له: سأتصل بك؟ سأتصل بك بعد خمس دقائق". أمر تافه. لقد كتب، لقد تجرأ على أن يكتب لي "أشتاقك": جملة جليلة، وعد وسرّ، إعلان حب، وسأجيبه: لا تقلق يا صغيري سأتصل بك سريعا...؟ جملة فاحشة، بمثابة هجوم. تفاهة تعني أنه في هذه اللحظة، في أي مستوى اضع نفسي، اين أضع علاقتنا. أستطيع أن أكتب له: اشتاق إليك أيضا. لا، ليست هذه الجملة، ستبدو سهلة جدا، عليّ أن أعرف في البداية إن كان يجرؤ على أن يخبرني بقراره وهو في مواجهتي، أشتاق إليك أيضا، ستبدو مثل عوامة إنقاذ، إنقاذ

للتو، سيقول لنفسه: بالتأكيد لا تستطيع العيش بعيدا عني، لنعيد الكرة مجددا كما من قبل، الزوجة والعشيقة، الآحاد عندي وفترات بعد الظهر معها، المنزل باسمي والغرسنيورة باسمها، أبدا، بالتأكيد لا!"

- هل تأتين غالبا إلى معرض الكتاب؟

- نعم! أعشق ذلك! للمدينة القديمة حرارة حقيقية، إنها جميلة جدا، وسكانها قراء حقيقيون، أجيء كلّ عام، لا أفوت سنة واحدة!

يحدث لها أن تكذب فعلا على المجهولين، تعرف مسبقا ما يرغبون في سماعه، لكن المقرّبين، المحبوبين، الأعزاء، فإنها لا تكذب عليهم أبدا، إنها لا تستطيع ذلك، إذ تحمرّ خجلا، تتلعثم، تقع في هذه الضحكات العصبية الصغيرة التي تجعلها تبدو حمقاء، كأنها امرأة - طفلة.

الجو حار جدا في الميرسيدس القديمة، ثمة سبّحة تتأرجح على المرآة العاكسة الداخلية، هناك العديد من الصور الملصقة على "تابلوه" القيادة، بالتأكيد إنها عائلة السائق الصغيرة، إذ في النهاية لدى العديد من الناس عائلات، إلا هي، هي وآلاف النساء الأخريات، عدد النساء أكبر بكثير من الرجال، لذلك يضطر الرجال إلى الزواج بأكثر من واحدة، المساكين، يرزحون تحت الأوامر. ترغب فجأو في أن تكتب لباتريك بأن كلمة manque تحتاج إلى s في نهايتها. كل كلمات manque تأخذ هذا الحرف: النقص في الأطفال، النقص في المال، النقص في الحب، دائما بصيغة الجمع، إذ ان نقصانا يجرّ آخر، الألم

يغذي ألما آخر، وأحزاننا هي مثل الطريدة، لا تنام فعلا.

أخيرا ظهر الفندق. نور أحمر في البعيد. أنوار شاحبة وباهتة على طول الممرّ الذي يقود إلى الحصن الصغير المسمى "لو هوم". كيف قرروا بأن هذا الفندق، هذه الكتلة الباطونية ستكون هنا، بالضبط، هنا، وسط اللاشيء، وسط هذه الأرض غير المأهولة؟ لقد أتوا بالرافعات والجرافات، لقد دفعت ضجة الأعمال بالطيور إلى الهرب، مثلما جعلت جذور الشجر ترتجف على بعد دائرة من عشرة كيلومترات. ربما كانت الأرض سهلة الحراثة، أرض جيدة للفلاحة، خصبة، صلصالية، كريمة، أسيلت فوقها أعمدة الباطون، من طرأت له هذه الفكرة فعلا؟ يجب أن تكون هناك، في الفندق، صالة اجتماعات، صالة طعام، صالة أعراس - كل السيارات المغبّرة في الموقف وثوب العروس الملطخ من الأسفل - لكن من وقع هذا العقد، إجازة التعمير، لماذا هذا الفندق، ولِمَ هي في هذا الفندق؟

دفعت إيجار التاكسي، أمسكت بحقيبة السفر. خرجت في الليل الثلجي. من تنفسها خرجت دوائر دخانية صغيرة امتزجت بالضباب، بآثار صغيرة من نفسها، في برد اللامكان.

مفتاح الغرفة كان صغيرا جدا كأنه مفتاح قفل، مثل مفتاح خزانة ثياب، مثل مفتاح حقيبة، شيء معدني بدون وزن لباب بدون أهمية، خفيف، من السهل فتحه، فندق مثل قصر غير مجدّ، إذ عند أول زلزال سينهار الديكور، فوق الأرض الخصبة والصلصالية ثمة تشابك من الأبواب المصدّعة، من الجدران المفتتة. دخلت ولم تشعر أبدا بالمفاجأة. على الماكيت، كان لا بدّ للغرفة أن تبدو مسلّية. لقد هنأ المهندس نفسه على هذه المنمنمة الجميلة. إنه نزيف. تقليد، خشب مقلّد والمعاكس حقيقي، نيونات، تلفزيون معلّق بطريقة خرقاء في زاوية من السقف، وبالتأكيد لوحة مطبوعة عن الخريف لا يمكن تفاديها، عزّة نفس الصياد، قفزة الغزال والأشجار الملطخة بشمس حمراء. ليس للأمر أهمية. عمّا قليل ستطفئ نور السقف، ستختبئ تحت الأغطية وتتكلم مع باتريك.

أثارت العاطفة الدموع في عينيها، الرغبة، الحاجة لأن تلفظ كلمات الحب، حبي، حبي، حبي، كلمات هامسة، ساخنة، متعبة، متضرّعة. حبي، حبي، حبي، كم أشتاق إليك.

الغرفة باردة جدا، أشعلت الرادياتور إلى درجته الأخيرة، بحثت في خزانة الحائط عن غطاء ثان ووسادة ثالثة، لكن الخزانة كانت فارغة. بحثت بنظرتها عن رفّ، عن طاولة صغيرة، لكنها لم تجد أي أثاث آخر وحين فهمت بأنها ستنام بكنزتها وجواربها، لعنت نفسها، لعنت قبولها تمضية عطلة الأسبوع في

معرض R، لعنت عدم استعلامها عن شروط الإقامة، لعنت نفسها على عدم تطلبها، على عدم ادعائها.

حبي...

نزعت تبرّجها في صالة الحمّام الصغيرة، جدرانه من الرخام المزيّف وستارة الدوش من البلاستيك الأزرق.

قل لي يا حبي بأنها كانت فترة طويلة، هذه الأيام العشرة من دوني، من دون رؤيتي، من دون لمسي، من دون التكلم معي، لقد اشتقت إليّ، قلها مجددا، صفها مجددا، اشتقت اليّ في الليل، اشتقت إلى رأسي على ظهرك، إلى فمي على جسدك، إلى سيقاننا وهي متشابكة، اشتقت اليّ في الصباح، عند اليقظة، إلى هدوء النهار وهو ينبلج حين ننتبه، بسحر، إلى أننا نمنا معا، حين نتذكر أننا مارسنا الحب في السواد، في قعر الليل....

نظرت إلى المرآة الصغيرة، إلى النور القاسي، إلى حقيقة وجهها العاري، الذي بدون مكياج، المتعب، وهو يرسل ابتسامة مزيّفة، ابتسامة مرغمة أكثر من تلك التي كانت توجهها طيلة النهار إلي اؤلئك المجهولين الذين كانوا يشترون كتبها، إلى اؤلئك المجهولين الذين لم يشتروا الكتب، إلى العابرين الحزينين، إلى العائلات الشاردة الذهن، إلى المصورين المحليين، إلى المتوحدين الضجرين، ابتسامة مغالية كي تشوه وجهها، كي تحيله قبيحا لمرة واحدة وإلى الأبد، كي يتوقف خبث هذه الابتسامات المحبّة وغير المبالية.

حبي! حبي! حبي! أنت الذي لا تعرف شيئا عن قباحتي هذا المساء، كم سأحبك، ستخبرني عمّا شعرت به من نقصان

وسأخبرك عن مستقبلنا، المستقبل المشترك الوحيد الممكن.

سمعت ضجة، خرخرة مياه في القساطل، ارتجاف حنفيات الحمّام في الغرفة إلى جانبها، زجاج يتهشم، علامة استفهام حادة، الزجاج أيضا. من ثم لا شيء.

ركضت إلى سريرها، يداها متجمدتان مثل أنفها، غرقت تحت الشراشف، تاركة رأسها خارجها كي تشعر بالبرد بشكل أقل، ولتتجاهل كل الديكور المحيط بها، لكي لا تسمع المياه ولا الصرخات الصغيرة ولا السقطات ولا المضايقات، عليها أن ترحل، أن تغلق عينيها لتغرق في صوت الآخر، في صوته الليلي الناعم الأجش قليلا عند الساعة الأولى فجرا، كي تتخيل وجهه، ذقنه النابتة في الصباح، التجاعيد الخفيفة وشعره المبعثر كأنه في معركة، عليه أن يشعر بالنعاس، بنبضاته أسرع مما كان يتوقع، بهذه الزهرة على وجنتيّ ذاك الذي أرسل رسالة حب ولم يتلق سوى الصمت كإجابة، مجهول الصمت الكبير، كل الخيبات المسموح بها والممزوجة بأكثر الرغبات لا عقلانية. كان عليه أن ينظر إلى علبة الرسائل مرّات عدة، أن يستمع إلى المجيب الآلي، لكن سدًى،ولن يعرف أنه خلال عدة دقائق لن يبقى وحيدا، بأنه خلال دقائق سيتحدان مجددا، سيلتقيان مجددا، سيتعرفان على بعضهما من جديد، لأنهما يعرفان صوتيهما، حنانهما، كلماتهما السرية، شيفرات الحب السخيفة، الطيبة، يفهمان الزمن، الصمت، نحنحات الحلق الصغيرة، التردد وحتى الابتسامات.

هي الآن تشعر بالجزع. خوف صغير مستثار. ثمة ألف نملة

في جسدها. تبتسم بعصبية، أنفها متغضن، يداها رطبتان قليلا فوق هاتفها المحمول المصنوع من الكروم، أي جنون لتجيب على رسالته، لتغرق في هذا الحب، أي أعجوبة.

أعادت قراءة رسالته.

ضغطت على الرقم 4: إعادة الاتصال. بدأ النور الأحمر بالوميص، بالوميض، بالوميض وهو يبحث عن الذبذبات المناسبة، عن الخط المناسب، عن الشخص المناسب. .. ظهر اسم باتريك بلون أزرق على خلفية بيضاء، بقي ظاهرا. عند الرنة الثانية، رفع السماعة.

بالتأكيد كان صوته أجش، وكانت هذه "الألو" أليفة جدا، جميلة جدا، مبحوحة قليلا، مدهشة، مليئة بالأمل، أمضت عينيها بقوة، عضّت على شفتيها، كانت تعرف بأن ليس هناك من كلمات تعبّر عن هذا التشوش، عن هذه الخشيّة، عن هذا الاحتفاء، رغبت في ما لو كانت بهيمة فقط لترسل صوتا، همهمة، صرخة حادة، ذبذبة. لو كانا متقابلين وجها لوجه، إذ لكان الأمر أبسط، بالتأكيد لو كانا ينظران إلى بعضهما لجاء الأمر أقل احتمالا، لتعانقا ولضمّا بعضهما بكل ما أوتيا من قوة، من حرمان، من حب، لمزجا الحب بالألم والدموع بالقبل.

ردّد هذه المرة بصوت يشوبه القلق

- ألو؟ أهذه أنت؟

- هذه أنا.

تقوقعت زيادة، كي تلتف بأكملها في صوته، لكي لا تكون موجودة سوى في تنفسه، ليمرّ في شرايينها، كي يتدفأ كل كيانها

الداخلي بنَفَسِهِ، كما لو أنه حياة ثابتة.

لأنه كان حياتها، كان الحقيقة الوحيدة، الواقع الوحيد في هذه الهوة التي أمامها: الزمن. والزمن، بدونه خلال هذه الأيام العشرة، لم يكن سوى تشوش، ركام من اللقاءات المهنية المؤدبة، من الأماكن المشتركة، الواجبات، من أجل البقاء واقفة على قدميها من دون أن تندفع مطلقا، كانت أياما تشبه أيام الآخرين. إنه المزاج المكفهر عينه في المترو، والحانات والمطاعم والشوارع الكبيرة بدت متشابهة، أصبحت ساعات الشروق والغروب مرتبطة بإيقاع الآخرين، أصبحت كائنا مجهولا يتقاسم تقويم آلاف المجهولين، لتحيا الزمن نفسه من دون أن ينبثق منه أي شيء.

عشرة أيام من دونه كانت عشرة أيام ضائعة، عشرة أيام رميت إلى الكلاب.

والآن، مثل أعجوبة، صوته الذي يجيب على صوتها، وانتظاره الذي يجيب على انتظارها المعلق، ومن جديد انفرج قلباهما.

- أنا في R في معرض كتاب R، أتعرف ذلك؟

- أعرف.

مزجا جدول أعمالهما حتى تصبح الحياة الخارجية، الحياة التي من أجل كسب القوت، في المستوى الثاني، حتى لا تكون سوى هلالين يشيران إلى صبرهما وليسمحا بلقائهما. وكان قد سجّل قبل شهر هذا الوقت بدونها في معرض كتاب R، ومنذ عشرة أيام كانت لا تزال هناك بعد نقاط الاستدلال العادية،

بعض الاشارات القصيرة كي يتخيل المرء ما يفعله الآخر، بعض القطارات، الطائرات وكلّ هذه الفنادق حيث لم يمارسا الجنس فيها.

والآن، كل واحد ينتظر من الآخر أن يتكلم، بأن يبدأ الآخر بتحديد النبرة، وكل واحد منهما ينتظر أن ينبجس المستحيل كي يتفقا.

لذلك كان صمت، مليء بالرغبة والعفّة، صمت يخبر عن هشاشة كيانهما اللذين وقعا في التجربة خلال هذه الأيام العشرة من الغياب ومن الأسئلة المعلّقة بدون أجوبة، عشرة أيام رمتهما مفترقين في الاعصار والحشد، إذ كل واحد منهما كان يجهل أثر هذه الأيام التي افترقا فيها، إذ كانا سالمين أم أنهما وُسِما بأمر ما، تأثرا بالآخرين أكثر مما تأثرا بنفسيهما؟

- هل تجري الأمور على ما يرام؟ هل وقّعت الكثير من النسخ؟ هل أنت سعيدة؟

- لا أعرف، لا يهمني الأمر؟

ومن جديد الصمت. وكان يبتسم، إنها واثقة من ذلك. يبتسم لأنه وجدها لم تتغيّر، سيئة النيّة، عنيدة، صريحة وقليلة الصبر. كان يحب ذلك كله فيها. تقلبات المزاج والفانتازيا، العناد والذبذبات، لقد عانى من ذلك أحيانا لكن من دون أن يتوقف عن حبّ ذلك أبدا.

- أشعر بالبرد. أنا في فندق متجمد، حتى أن ليس هناك من غطاء آخر، لم اشاهد ذلك في حياتي، إني أتجمد.

- أشتاقك. لا أستطيع. أشتاقك.

شعرت بالرغبة في الصراخ: إذا؟ ماذا إذا؟ قل لي شيئا آخر. قل لي بأن المنزل قد تمّ بيعه، قل لي إنك تنتظرني في مكان ما، إنك ستفتح لي بابا وسيكون منزلي لتقول "منزلي هو منزلك"، لا أستطيع العودة كما من قبل، فهذه الحياة فرنسية جدا، المرأة، العشيقة، الجميع على علم بذلك، ما من أكاذيب، أه، لاشيء من ذلك بيننا، يعاني الجميع من ذلك ويسكتون بسبب عزة النفس، بسبب المصالح، بسبب الراحة، بسبب الخوف.

- أشعر بالصقيع. لكن أتعرف، لو رغبت، لما نمت وحيدة هذه الليلة، بعد الظهر التقيت باسحق، لقد حدثتك عن اسحق، الناشر، أتذكر ذلك، حسنا، عرض عليّ أشياء عديدة، إنه رجل متزوج، أجبته بأنني مع المتزوجين، لن أدخل في علاقة جديدة أبدا، لكنك لا تعرف بما أجابني، قال لي من أجلي يترك زوجته.

كانت تريد أن يشعر بالغيرة. تريد أن تشعره بالجنون. ترغب في أن يقفز إلى سيارته ليحطم رأس اسحق، في عزّ الليل، في قلب معرض الكتاب، في أن يمتنع عن ضربها، في أن لا يعرف ماذا يفعله بيديه، في أن لا يعرف كيف يحوي ألمه ولا كيف يعبّر عن حبه. الفضيحة، أن يغادر زوجته في عزّ الليل، ليصرخ في وجهها عبر الهاتف، طول الطريق: "أمنعك عن هذا! امنعك من رؤية رجال آخرين سواي!" تريد أن يصبح رجوليا، ذكوريا، أن يقول لاسحق بعد أن يكون قد وجّه قبضته إلى شدقه: "إنها امرأتي! امرأتي، أتسمع أيها الغبي؟ إنها تخصني! إنها امرأتي!".

دام ذلك لحظة. صمته. صمت رجل على الهاتف. الرجل النائم في باريس، ثمة المئات من الكيلومترات بين سريريهما، رجل ذو جسد عار، ذو صوت أجش. دام ذلك لحظة إشعال الكبريتة. فقط شعلة صغيرة قبل أن تلتهم النار كل شيء.

قبل أن تنبجس ضحكته.

لأنه يضحك. بصراحة. بعفوية. نعومة الضحكة. الخفّة التي لا تسامح. والتجأت الضحكة في قلبها، تزوجت لحمها ودمها، ارتبطت تعرجات دماغها مجددا بهذه الضحكة التي أصبحت كثيفة، مجتاحة، مريضة، ضحكة تُسِرُّ إليها بأنها كانت سخيفة، امرأة سخيفة، المرأة التي لا يمكن لأي رجل أن يختارها. تنشقت هذه الضحكة، شربتها، وفي البعيد، في الطرف الآخر من الأرض، كانت تسمع صوت رجل الذي كان يتابع "وقالت لي بأنها ترغب في لقائك، كنت في مقصورتها و..."، كيف يمكن للكلمات أن تتوجد، بعد هذه الضحكة، كيف يمكن للغة ذات جمل منطقية أن تستمر، إداء التنقيط، هذيان العالم الآخر، "لقد حدثتها عنك لا أستطيع منع نفسي من أن أحدثها عنك، حينذاك اقترحت"، لم تتعلم يوما هذه اللغة، لا تعرف كيف تترجمها، "روايتك الأخيرة لا تصدق"، لا يصدق، لا أحد يصدق أن شيئا آخر يوجد غير هذه الضحكة، وبالقرب منها بالضبط ثمة أناس يتحدثون ولديهم أشياء أخرى ليقولوها غير هذه الضحكة، بينما كانت تعرف ذلك، كل شيء كان يشع. عليه أن يصمت الآن فهذه الضحكة مثل ثعبان أنزل لها السمّ مباشرة من حلقها إلى معدتها، "إنها تعرفك، تحب ما تفعلينه كثيرا"، كيف أقول له إني ميتة، كيف أشير له بأن على هذا الرجل أن يتوقف عن الكلام، هذا القذر الذي ضحك والذي لم يفكر يوما في اختياري، "إنها تعرفك أقول لك"، آه، إنها تعرفني، أمر

جنوني، جنوني هو عدد الناس الذين يعرفوني، كم أصبح الأمر بعيدا، كم أصبحت بعيدة هذه الفكرة، هذا الاحتراز من المعارف من الاقتراحات - أجل أجل تعرفها جيدا قرأت كتبها - آه حسنا، أمر غريب هو هذا الشيء، إنها تعرفني وأنا لا أعرفها لكن هو يعرفها ويعرفني، يعرف المرأة التي تعرفني والتي لا أعرفها، لست هنا، ويتحدثان عني، لكني في مكان آخر، غريب أمر كل هؤلاء الناس الذين يعرفوني لكن لا ليختاروني، ربما لأنهم يعرفون بعضهم البعض لا يختارونك، كلا، لكن هل رأيت نفسك أيها الشيء الصغير وأنت ترتدين جواربك في هذا المأوى المحاط بالغزلان المتأهبة، كلا، الأمر يدفع إلى الموت من الضحك.

أقفلت الخط. كي تمنع استمرار السقوط. أطفأت جهازها. شاشة سوداء في الليل الأسود.

تنفست تحت الشراشف. كانت تبكي بصمت، بشكل غير منتظم، تبكي كإمراة في مشهد بطيء، امرأة مجهولة تمحو نفسها، كانت بالضبط صورة امرأة مليئة بالدموع، لكن في أعماقها لا شي سوى الفراغ، اليقين بأنها غادرت لتوها عالمها الخاص، كلّ ما كان مألوفا لديها، كلّ ما كان عزيزا على قلبها، كلّ ما آمنت به، كلّ ما خضّت له حياتها. هذا الرجل. هذا الأكتع الذي يمد إليها ذراعيه. هذا العاشق ذو القلب الصغير. فقط كِلّة بين شريانين. هذا الرجل الذي أشعلها من الداخل - ليست هي فقط، بل كل ما يلمسه، كل مكان يذهبان إليه، رجل أضاء باريس من أجلها، وشعرت بعزة النفس لكي تصدق بأنها عاشت هذا الحب في باريس، بأنها سجلته إلى الأبد في سرّ المدينة، الأرسنال، جزيرة سان لويس، كنيسة سان جيرفيه، لو سيليكت، كل مكان من هذه الأمكنة سيتذكرهما كما كل عابر، وكم من العابرين كانوا يلتفتون إليهما، فقبلاتهما في الشارع لا تشير إلى الحشمة أبدا، فقط اللاوعي، الاندفاع، الفرح، الدهشة المتجددة دوما بسلطة الالتفات نحو الآخر والالتجاء بين ذراعيه، معرفة أن فمه قريب لأخذه، التقبيل وهما يسيران، التقبيل أكثر من السير والبدء من جديد في الضحك اللاهي لهذه الرغبة في الطيران، اللجوء إلى تحت كنة، الجلوس على مقعد للاندفاع مجددا وليجدا نفسيهما كمراهقين حرّين، سعيدين جدا، من أجل لا شيء، لقبلة، لعناق.

أهي باريس؟ هل شاهد المارون في باريس ما لم تشاهده؟ ألم يكن هذا الحب موجودا؟ هي نفسها أكانت لا شيء؟ هل كان ذلك موجودا منذ زمن بعيد؟

منذ متى والأمر كان مستمرا؟

II

"هل هناك صورة؟"

إنه السؤال الذي يطرحه والدها باستمرار عند وصول الرسالة. "هل هناك صورة؟"

كان المغلّف طويلا وأبيض، مغلف مستطيل الشكل، أنيق، غني. الكلمة، في الداخل، قصيرة دائما، وتنتهي دوما بجملة لا تتغير: "سأكتب لك مطولا المرة القادمةBBAB".

- ما معنى BBAB يا أمي؟

- قبلات طيبة إلى اللقاء.

- لِمَ إذا لا تكتب: قبلات طيبة إلى اللقاء؟

- لأنها مستعجلة BBAB. هي من أجل الناس المنشغلين.

وبالتأكيد لم تكن تكتب "مطولا" أبدا، في المرّة التالية، لكنّ ذاك لم يكن ضروريا، الأهم أن تكون هناك صورة.

- كم أرسلت هذا الشهر؟ يسأل والدها.

كان المغلف طويلا، مستطيلا، على شكل صك. كان الصك يريح والديها في كلّ مرة. كلّ شهر. لم يكن أحد يقرأ الأرقام بصوت عال، وفي أي حال، لم تكن هيلين لتفهم ذلك. هذا هو الأساس.

حينذاك كانت تعود لتلعب، في غرفتها. مع أشقائها. مع شقيقاتها. أطفال في كل مكان. المال ولا في أي مكان. ألعابها أجمل من ألعاب أشقائها وشقيقاتها. ثياب بمقاسها، وجديدة. ثياب نادرا ما تشترى من المحال، بمعونة الصك، غالبا ما كانت

والدتها تشتريها أكبر من حجمها كي تدوم أكثر. يجب أن تكبر، تكبر، كي تصل إلى مقاس الثياب، لكن ما أن يتحقق الهدف، حتى تصبح الثياب، ذات النوعية السيئة، مهترئة، رثة، حقيرة، إذاك تكبر وتتركها إلى الأخت، إلى الأخ الذي ولد بعدها بالضبط. وحين تناسب الثياب المقاس تكون قد أصبحت عتيقة بالضرورة.

لكن ليس هيلين. ثياب هيلين كانت جديدة. تشترى من باريس "حتى أني اجتزت الشانزيليزيه هكذا، كي أجعلها تشعر بالخوف، وحدها، لحظة انطلاق السيارات وقد نجحت في ذلك!"

- وإذا؟ ماذا قالت إذا؟

- لقد شعرت بالخوف حين كانت تمرّ السيارات.

- لكن بعد ذلك؟ حين أصبح الضوء أحمر؟

- اجتازت الطريق بعد ذلك.

- يعني؟

- صفعتني حينذاك.

وفي ثيابها الجديدة، التي كانت تعتني بها لكي لا تفسد والتي كانت أمها تكويها وتطويها بعناية في الحقيبة الحمراء، كانت تكبر. كانت الحقيبة ترافقها. بيربينيان باريس. بيربينيان أورلي. كي تذهب للإقامة عند نسيبة أمها.

النسيبة الغنية.

وعليها أن تكون عاقلة بخاصة.

عاقلة مثل صورة.

هناك كانوا يحبونها. في منزلها كانوا يحبونها أيضا، يحبونها في كل مكان. يتنازعونها. لسبب اقتصادي. لم يكن للنسيبة أولاد. كانت النسيبة تعاني من حرمان الأطفال. ولوالدتها الكثير منهم. لكن لِمَ هيلين؟ لِمَ اختيرت هيلين من بين أشقائها؟ لم تكن جميلة بشكل خاص. كانت عادية جدا في دروسها. طباعها سيئة. طباع كلب نحاول تهدئته عبثا عبر مزيج من مهدئ/ حمّام بارد، لكن سدى، أزمات عصبية رهيبة، كانت تهرش سيقانها، تتمرغ أرضا، تصرخ وهي تشد على أسنانها بقوة لدرجة أنها كسرت ميناء أسنانها، تتأرجح لساعات على كتف كنبة الصالة بينما كانت النسيبة تضع لها اسطوانتها المفضلة، قصة Le chat botté، وبينما كانت هيلين تتخيّل حزن القرقف المسكين الذي لم يترك له والده وهو يحتضر إلا هرّا، كانت تتأرجح من الأمام إلى الورء، بسرعة متزايدة، إذ كان عضوها ينفتح مثل زهرة، معلنا لها عن أحاسيس جديدة سرعان ما أصبحت مألوفة، ويومية فيما بعد. لقد أتلفت ذراع الكنبة. بكثرة. عندئذ أهدت إليها النسيبة حصانا قلابا رائعا، مصنوعا من خشب مطليّ، يلمع، ذا ركابين، وزمام غامق وخطم حديدي، كان رائعا، لذلك لم تعد لديها الحاجة للاستماع إلى اسطوانتها المفضلة كي تتأرجح، لم يعد أمامها سوى القول إنها تشعر باللذة فوق حصانها القلاّب، لتخترع آلاف قصص الأميرات، إلا أنها لم تخترع شيئا، إذ كانت تستنمي، ببساطة، كما كلّ الفتيات اللواتي في عمرها، بينما كانت النسيبة تظن بأنها

مهووسة بالفروسية لذلك أهدتها مهرا حقيقيا، وفوق سرج المهر، فوق جلده الذي يئن، أو فوق شعر الحصان الصغير العاري، كان الأمر أكثر روعة.

بدأت هيلين بالشهيق، تلطخت بالدموع والمخاط، التصق شعرها على وجنتيها، وتمخطت بالشراشف السميكة، تبّا لعاملة التنظيف، تبّا لما سيقولوه عنها، لم تكن تشعر باليأس الأنيق ولا بالقوة لأن تقوم، لتقف على قدميها في هذه الغرفة الباردة تحت النور الفج كي تذهب إلى صالة الحمام، يكفي أن تفكر بذلك كي ترتجف، كانت تشعر بالعطش بشكل رهيب، أخرجت يدا من تحت الشرشف كي تشعل الضوء، كي تقيس المسافة ما بين سريرها و"الميني - بار".

وظهرت لها الغرفة. المجهول القاسي، الصمت الكثيف، اللوحة المؤطرة بشكل سيء، الخزانة الفارغة، الستار الأبيض العالق عليه الغبار. مع شقيقاتها، كانت تلعب في فترات بعد الظهر بأكملها وهي تتنكر بستائر الصالة البيضاء، تلعب لعبة العروس، تضع أسفل الستارة على رأسها. لم تكن تستطيع التمادي أكثر، إذ بعد خطوتين تصل إلى المذبح، كانت تشعر بالمتعة والستارة على رأسها. كانت شقيقتها الصغيرة تجرّ الذيل، والأخرى تلعب دور الكاهن، والثالثة دور الأم، أما دور العريس فلا أحد من أشقائها كان يرغب في تقليد الدور. كانت لعبة بنات وكان من الأفضل تخيّل أن باستطاعتها القول "نعم أرغب في الزواج منه"، من دون أن تفلت الستارة من يدها.

سمعت صوت محرك، صفقتي باب، أصوات، أكعاب

أحذية على الرصيف، المحرك الذي يبتعد. الصمت الكبير.

أمر لا يصدق. لا ينام أحد بعد هل الوقت تأخر فعلا. ربما حُلّت مشكلة الخبيث الكبير فوق ساحة الرقص، وربما كانت كاتبة سيرة إلفيس بريسلي تتقيأ في قبعتها الفرو... إلا إن كانا هما، الأصوات والأحذية في الليل، قد يكونا عادا أبكر من الآخرين، ربما تجرآا على الاعتراف بتعبهما قبل الآخرين، ربما هو ضعف، كدّر المرح والمزاج الصافي المفروضين، لِمَ نخفي المزاج المرح حين نكون عديدين؟

كانت وحيدة. وهاتفها المحمول مقفل، لا تستطيع معرفة الساعة ولا من أي مكان، لم تحمل ساعة يوما، لا تعلق شيئا لا في يدها أو في عنقها، لا تحمل أي رابط.

كانت وحيدة وسواد الليل العميق لم يكن يتوافق مع ما كانت تتخيله، شعرت بأنها هنا في هذه الغرفة منذ ساعات والشعور بالفرح الذي أحسته عندما فكرت بالاتصال بباتريك ينتمي إلى زمن آخر، لشخص آخر غيرها. نعم هي في هذا الليل الخامد كانت شخصا آخر. كانت كتلك التي بدأت تعي. التي بدأت بالكاد تشعر بالجرأة، ويكشف ثقل الأكاذيب الجديد، هذا الحب الذي عاشته وحدها، هذا الشغف وهي مستوحدة، كم من الذكريات، من الألق، من الإيمان بالسعادة، التي تحولت إلى طعنات في أسفل البطن.

كان "الميني - بار" على بعد متر من السرير، فالغرفة صغيرة وكل شيء يبدو قريبا، إلا أنه ما بين "الميني - بار" وبينها ثمة مساحة باردة، إذ أن إخراج رأسها فقط، إخراج يدها

من تحت الشراشف كي تشعل الضوء، أفهمها عنف هذا البرد الذي ينتظرها عن أسفل السرير كي يسدّ عليها أي عميلة مرور.

تخلّت عن فكرتها.

لِمَ لَمْ تكن هناك سوى سيارة تاكسي واحدة؟ لماذا لم يعودوا معا جميعا؟ هل هم أيضا قد تخيلتهم متعاضدين، على رسلهم، مجتمعين؟ لديها الاحساس بأنها كانت تبتسم هذه الأمسية، متيقظة ومحبّة لكن ماذا فكروا عنها؟ ربما أنها كئيبة، ممحوة، عجوز، غير مرتاحة؟ ربما أيضا لا يذكرون أنها كانت جالسة إلى طاولتهم، وبأنها أكلت معهم "الفواغرا" و"الشارلوت بالفريز". في أيّ حال، إن تذكروها هذا المساء فسينسوها في اليوم التالي. لن ينسوها هي فقط، بل سينسون بعضهم البعض، إنها ولائم من أجل لا شيء، سهرات غائبة لن تكتب في أي حياة، يمضون الوقت وهم يضيعون وقتهم، ولِمَ ذلك كله؟ كي يجدوا الحقيقة يوما وليضعوها في أعماق أحشائهم مثل حجر.

كان مشهدا الصيد مشهدا منحرفا. كانت تنحني - بخطورة - إلى اليمين بينما يبدو الغزال راكضا وهو يصعد مجرى المياه.

وهي صغيرة، وفي سرير النسيبة الكبير، أمضت ساعات طويلة وهي تحدق بلوحت جوي، الزهرية اللون، التي تغطي رأس السرير، أمضت ليالي وصباحات وهي تحرّك الراعيات الجالسات على الحجر، السلة الصغيرة والجرو تحت أقدامهن بينما ينحني المركيزات صوبهن، كانوا أنيقين ولونهم زهر ايضا، قدم على الحجر، والساق مطوية بالطبع ولأحذيتهم شرائط. كانت تجعلهم يتكلمون ويتكلمون في خيالها، في كل صباح وكل مساء

كان لديهم الكثير من الأخبار الجديدة لروايتها، لم يتأففوا أبدا وكانوا يرغبون بالمزيد والمزيد، وكأنهم يسمعون هذه الكلمات للمرة الأولى كلّ يوم، وحين تأتي إليها الخادمة بالفطور إلى سريرها، كانت هيلين تنقلب من عالم الحلم إلى العالم الواقعي الغريب، واقع الاختلافات، كلّ شيء كان مختلفا عن المنزل إلا أن ذلك لم يشعرها بالصدمة، هكذا كان العالم مقسوما بالنسبة إليها: الأغنياء، الفقراء، وهي وسطهما كي تقسم الثروة بالكاد، هكذا كان قانون العالم، ولغاية مراهقتها لم يدفعها هذا القانون المريض إلى الثورة.

ما الذي يفعله الآن بعد أن انتهى من الضحك، هذا القذر الذي لم يحبها أبدا؟ هل سمعته زوجته الموجودة في الغرفة إلى جانبه وهو يضحك؟ ولِمَ في الغرفة المجاورة؟ هل لأننا لا نستطيع تخيل شيء آخر؟ هل لأنه قال بأن منذ عشر سنوات، منذ ميلاد الطفل الأخير، وكل واحد يعيش في غرفة؟ غرفتان في منزل مشترك، ما معنى ذلك؟ سريران متباعدان لكن المنتوجات مشتركة في المطبخ، في الحمام، كحل السيدة وعطر السيد لما بعد الحلاقة، كل تشكيلة هوغو بوس التي اشترتها له قبل ذهابه إلى بلجيكا لأنه كان سيمثل هناك دور عامل من الشمال، لقد أنفقت ثروة، صابون، "جِل" للاستحمام، شمبوان، سائل ما بعد الحلاقة، عطر، ثروة في الصندوق الجميل لأنها ظنّت أنه بعد كل يوم تصوير، سيكون أسود اللون من رأسه إلى أخمص قدميه، سيمتلئ وجهه بالفحم الأسود كما عند زولا، وضحك قائلا لها بأن الأمر عائد للفولاذ لا للفحم، وبأن الأمر مجرد فيلم وليس واقعا.

الواقع أنه ضحك عندما قالت له بأن اسحق أخبرها عن استعداده لمغادرة زوجته من أجلها، بيد أن اسحق لم يكن يفكر ولو بكلمة من هذا القبيل، كانت مجرد جملة لبقة، مجرد مجاملة في هذا العالم العديم الذمّة، طريقة أيضا للاعلان عن استقلاليته. كان خفيفا ذلك كله، فالأزواج الذين يستمرون معا لفترة طويلة يسمحون لأنفسهم جميع أنواع الحريات، لكن هي، على العكس، تجدهم مكبلين، والرجال يلعبون أدوارا مختلفة من كونهم شبانا إلى دور النبلاء وصولا إلى دور العشاق، فالتمثيل لا يجعلهم يشيخون، يلعبون أدوار المواعيد والوداع واللقاء مجددا، يقدمون الشمبانيا في عطلة الأسبوع في "التوكيه"، وغرفة فندق في مدينة البندقية، كانوا مذهولين، مرعوبين من فكرة أنهم يجدون أنفسهم مجددا وهم يقودون السفينة وحدهم، أن لا يرزحوا تحت المسؤوليات والابتزازات: المرأة التي لا تعمل، الأطفال الذين يكبرون، ثمن المنزل، الضرائب، المصرف، كل. هذا العالم الصغير الذي يختلط فيه المال بالعواطف بخفة. "سيكلفني الأمر غاليا بأن أرحل يا حبي، يا حبي، فزوجتي تطلب الكثير من المال يا حبي، لقد تواعدت مع المحاسب، قولي لي بأنك تحبيني، لدي الكثير من المستحقات، أرغب فيك، رغبت فيك دائما يا حبي، يا حبي، لقد استشرت محاميا، النفقة أكبر من امكانياتي، أعشق تقبيل أسنانك، بلى بلى أؤكد لك بأني سأقبل أسنانك لأنك تبتسمين دائما حين اقبلك، ابني

البكر مشوش من هذه القصص، علاماته المدرسية مثيرة للشفقة والدروس الخصوصية تكلف ثروة، آه، إني أبلغ النشوة يا حبي، يا حبي!".

تبّا، ستذهب لغاية "الميني - بار"، لتشرب، لا لأنها تشعر بالعطش فقط، بل لأنها تريد من هذا البرد أن يقبض عليها، أن يصفعها، ليحملها إلى واقع آخر، واقع هذا الفندق المشترك حيث لا أحد يبكي قرب هاتف جوال مقفل. هناك من يُفرشي أسنانه، هناك من يشاهد التلفزيون، من يقوم بحساباته، من يمارس الحب، من يرى الكوابيس بالألوان، نذير الأحلام، كل واحد يتفرغ لمشاغله الصغيرة لذلك ما من سبب لتتألم أكثر من الآخرين. تسقط في الصمت.

شعرت بألم في أسنانها من المياه المثلجة.
ألم في الأسنان. ألم في البطن. ألم في القلب.
تستطيع أن تفتح "الميني - بار" وهي جالسة على سريرها.
ألم في الراس. العينان اللتان تحرقانها.
تستطيع أن تبعد الستائر وهي على سريرها.

في الخارج، أنوار الممرّ الخفيضة الشاحبة، والليل الأسود عند طرف الدرب فجأة، فظ مثل هوّة، كم غزالة سقطت اليوم؟ السمان. الديكة البرية. الحَمام البري. ما الذي نتصيده في سولوني؟ أي شواء في الثلاجات، في الغرف الباردة، فخر سائقي التكسي، البنادق في صندوق الميرسيدس الخلفي والفوط التي تضعها الزوجات لكي لا تتسخ الصناديق، "انزع حذاءك قبل أن تدخل. أندريه! تعال لتلتقط صورة لأبيك، تعال إلى هنا

قليلا! انزع حذاءك قلت لك".

أول عار شعرت به في طفولتها، أول عار حقيقي، مسهب، بطيء، كذاك الذي يوخز العينين ويحني الجبهة، كان في مقعد سيارة الميرسيدس الخلفي، لم تعد تذكر أي واحدة، إذ كانت النسيبة تبدّلها بانتظام، لكنها تكون دائما سيارات سوداء، كانت أكثر أناقة ودائما ثمة ألعاب جديدة على التابلوه الأمامي يفتخر بها زوجها؛ في ذلك اليوم، لم يكن الزوج من يقودها، بل السائق. كانت، هي، في المقعد الخلفي، وهو بدون قبعته وطقمه، والجلد البني الفاتح، الجلد المشغول، الدبغ، الممتّد على المقاعد، على المسند الكبير الذي يسحرها، هذا المسند الذي احتل مكانا كبيرا..(في سيارة والدها كانوا كثيرين، الصغار يجلسون في أحضان الكبار، الأكبر محشورون إلى جانب بعضهم البعض ونكتة أبيها الأبدية عندما يتوقفون على الإشارة الحمراء، لأن الموجودين في السيارات الأخرى، إلى جانبهم، كانوا يحصونهم ويعيدون عدهم، حينذاك يفتح الوالد النافذة ويقول: "هناك غيرهم بعد، لقد تركنا التوائم في المنزل!"، من ثم يعيد إقفال النافذة ويقول للأم: "هذا صحيح، أحب أن أرزق بتوأم")، لكن في ميرسيدس النسيبة، هذا المسند الضخم الموضوع بين المقعدين، كان، على الأقل، بمثابة أماكان ثلاثة أخوة... وفجأة العار. عار هذا اليوم في الشارع المليء بالأشغال. لا شيء سوى الميرسيدس السوداء في الشارع الصغير. لا مجال للتحرك. والعامل العربي، يداه الكبيرتان المهترئتان على الرفش، وزجاج السائق الذي ينزل على مهل، بأناقة، وبدون إنذار، بدون مقدمات، بدأت شتائم السائق للعامل كي يتحرك.

للحال. بصمت. انتحى جانبا ومرّت الميرسيدس أمامه، على مهل. صوت الدواليب الصامتة على الحصى الصغير، رأت هيلين نظرة العامل المصوّبة نحوها، بدون ضغينة، بدون ثأر، نظرة هادئة مستسلمة لا تطلب شيئا، فرغبت حينذاك أن تقول له أن لا علاقة لها بالأمر، بهذه السيارة، بأنها ليست غنيّة، بأنها ليست سوى عابرة.

لكن الميرسيدس مرّت.

لن يعرف العامل الحقيقة أبدا.

فات الوقت.

تشير ضحكة باتريك إلى الذي لا يمكن إصلاحه.

أغلقت هيلين عينيها. تتذكر للمرة الأخيرة. ترتبك للمرة الأخيرة. بفكرها، جالت على جسد العشيق، من إبهام قدمه وحتى قمة رأسه، كل جزء من كينونته المعشوقة: القدمان، الساقان، العضو، البطن، الكتفان، الذراعان، اليدان، الوجه المعشوق، شفتاه على جفنيها المغلقين، أصابعه على منحدر رمشها، لسانه على لسانها، وجهه على وجهها، التجاؤه، حبه، محبوبها الذي قبض عليها بكل رعبها، أحزانها، اندفاعاتها، أخطائها، محبوبها الذي قطف حياتها قبل سديمية هذه الأخطاء، محبوبها الأبدي، القبلات المسروقة، الطائرة، المرسلة إلى أقصى العالم، من على أطراف الأصابع، قُبَل الاعتذارات الخجلة، قبل المقاهي الصامتة في الصباح، القبل الخطرة في السيارات، في ممر المشاة، القبل العميقة، النبضات الجديدة، لا شيء بعد من هذا، من هذا الحب في وضح النهار، لا شيء بعد من قبلهما في وضح النهار، ولا حتى قبلهما في الليل، هو في داخلها، فوقها، بطء حركات وركيهما والشفاه الساخنة، التأوهات الفالتة، البطيئة، المنتظمة، لا شيء بعد من وفرة العناق، من اسطوانة العناق اللانهائية، هذا التعب المشترك، الحزن، الكسل، المتعة بين هاتين الذراعين، لا شيء.

انتهى الأمر.

سينتهي الأمر.

نظرت هيلين إلى الحائط المقابل، الأبيض، الهادئ، لا مبالاة حائط لا ينتمي إلى أحد، ما من صورة، ما من مرآة، لا أحد يستطيع أن يتعرف إلى نفسه، أن يحلم في هذه الغرفة، أن ينظر إلى الحياة المقابلة بالضبط: لم يخترها رجل حياتها، لرجل حياتها حياة أخرى، أكثر امتلاءا، أغلى، حياة بطريرك، حياة زوج مذنب، حياة زوج ذي بطاقة اعتماد، لكنه كان يخون.

إنه ينتمي إليها.

كثيرا ما مزجا االنهارات بالليالي، صارعا الظلمات، الراحات على الراحات المضمومة، الدماء على دماء الآخر الساخنة، الدماء الملطخة داخلها من جراء عضوه المصفى، المصالح، هذا الرجل كان داخلها، وهي التي تعرف ذلك فقط.

وعلى الجدار الأبيض، النظيف، تمتزج الدماء التي سالت: دم والدتها الأول التي طالما أنجبت، دم الأب الخفيف، القصة التي رويت غالبا، المشهد المخجل الذي كان يضحك منه.

كان شابا حينذاك، لا يعرف شيئا، وقدمته النسيبة إلى واحدة من صديقاتها، صديقة ذات غنى اليد، يدان تأتيان من محلات المجوهرات في ساحة الفاندوم، هذه المحلات التي تعرفها هيلين جيدا، لكن ولتعجبها الشديد، لم تكن بواباتها الأمامية تفتح.

على يدي الصديقة الغنيتين، نزف والدها من أنفه. لم تكن النسيبة قد نبهته أن تقبيل اليد هو موقف، لا حركة. نقترب من اليد، لكن لا نلمسها، ننحني أمامها، إذ يكفي ذلك. لكنه ذهب مباشرة فجرح الألماس أنفه.

ليس للمال رائحة.

الجرح الفضي لا يميت.

اندمل الجرح بسرعة، كان عند والدها محارم كبيرة يلفها على شكل كرة في جيبه، شدها على أنفه وهو يطلب المعذرة من السيدة الغنية التي يمكن أن يكون قد لوثها. معذرة يا سيدتي، أعتذر.

دم الوالد على اليد البيضاء، على اليد البطالة، التي لم تعرف التعب يوما. آسف سيدتي أعتذر منك. يدا الأب اللتان تبنيان المنازل التي لا يسكنها أبدا ولكن التي كان يفتخر بها جدا،اعتذر منك، كان يشير لأطفاله إليها خلال نزهات الأحد، فيرون الأشكال البشرية هي تتحرك خلف النوافذ، فيقول الأب "ها أنهم سعداء"، لأنه يظن بأن العيش المشترك بين الناس يعني السعادة، كانت هيلين تعرف بأن العيش المشترك قد يعني التعاسة، كانت تعرف بأنه يمكن للرجل أن يشتم زوجته وهو يخاطبها باحترام، للأغنياء هذا الاستخفاف المهذب، آسف سيدتي، أعتذر منك.

أنها أيدي لتوضع في الصندوق، يا أبي، لتثمن، لتؤكد، إنها ملايين لا تحصى على أصابع اليد، بل على أربع أيادي، على عشرة، لا تعتذر، إنها أيدي تسلخ وأنا تهت بينها كلها.

في المحلات الكبيرة حيث كانت تذهب مع النسيبة، كانت هيلين تتوه. تتوه من دون أن تضيع. كانت تخطئ فقط. كانت تمسك بالأيدي، هكذا، صدفة، أيدي نساء في طوابق العطور، أدوات المطبخ، مشتقات الحليب، ولم تكن تنتبه، كما النساء

اللواتي تمسك بأيديهن، إلى هذه الغلطة.

كان الحال يستمر على هذا المنوال. اليد في يد امرأة غريبة كانت تتنزه بين الأجنحة: كثافة فوط الاستحمام، السعر غير المقروء لزجاجة مياه، الثلج الذي لا يذوب، علاقة السكاكين، دلو الشمبانيا، مسخن الأطباق، لوائح العرس، أفكار عن الهدايا، كانت تباع أشياء لا نفع لها إلا في باريس، إذ أن المنازل مختلفة، كذلك الأصدقاء، لا يأكلون الأشياء عينها في بريبنيان وحتى الخبز كان مختلفا (الباغيت الباريسية! التي كانت تتحدث أمها عنها وكأنها حلوى محرمة)، لكن دائما، وبعد لحظات، كانت هيلين ترى النسيبة تظهر فجأة: "هيلين! هل أنت هنا!" حينذاك ترفع هيلين رأسها، تنظر إلى النسيبة باستغراب ومن ثم إلى يدها التي في يد المرأة المجهولة فتقول السيدتان في الوقت نفسه: "آه آسفة! أرجوك! إلى اللقاء سيدتي"، وتمرّر يدها من يد المرأة المجهولة إلى يد النسيبة التي تقول: "اعتقدت أني فقدتك"، بيد أنها لم تكن مضطربة كثيرا لتكمل تسوقها. لديها عادة أن تشتري من الشيء نفسه عدة نسخ: ستة إطارات للصور، ثلاث مزهريات، مصباحا مكتب، والقمصان! أربعة قمصان! أربعة قمصان في اليوم عينه، أربع هدايا في اليوم نفسه للشخص عينه الذي لا يصادف يوم مولده ذاك النهار. بالنسبة إلى أعياد المولد كانت تذهب إلى كريستيان ديور، كانت النسيبة تقول: "لا أعرف ماذا اشتري له، لديه كل شيء. هدية من عند كريستيان ديور، لا بد أن تدخل البهجة إلى القلب دائما." وحين كانت تهدي صديقة ما، تقول لها بطريقة لايمكن تجنّبها وهي تمدّ إليها

بالعلبة: "أتمنى أن لا تكوني اشتريت مثلها"، وكانت تملك حدسا كبيرا، إذ غالبا ما تكون الصديقة اشترت الشيء عينه، حتى وإن كانت من عند كريستيان ديور، لذلك توجب عليها أن تبدل عاداتها وتذهب إلى عند إيف سان لوران.

دم الوالد على الألماس الشفاف. تعرّق الوالد كي يكسب 6 فرنكات و3 قروش. دموع الأم بسبب بداية السنة الدراسية، تسوس أسنان أحد أولادها، حسر نظر ولد آخر... وحقيبة هيلين.

بيربينان باريس
بيربينيان أورلي
عودة الحصان القلاّب وألعاب الأطفال والأحاسيس المذنبة.
بيربينيان أورلي

في تلك الحقبة كانوا يتحققون من بطاقات الطائرة وهم على متنها، كان يتوجب تقديمها إلى المضيفة التي تنحني مثل مركيز صغير، وهيلين، على الرغم من سنواتها الثلاث كانت تمدّ دائما بالأوراق المناسبة، فتبتسم لها المضيفة قائلة "حسنا، أنت لم تخطئي"، فتجيبها هيلين: "كلا سيدتي، أنا لا أخطئ أبدا".

بيربينيان أورلي

كانت المضيفة محبّة جدا، جميلة جدا، قالت هيلين لنفسها: "غدا سأصبح مضيفة" فاعترض نسيبها: "ليست المضيفات سوى خادمات" وكان يعرف الموضوع الذي يتكلم عنه، هو الذي قضى حياته في المطارات، كل هذه الفروقات في التوقيت، الويسكي البدون ضريبة، علب السجائر، أما المضيفات

فكن خادمات فقط، لدى هيلين أحلام الخادمات.

ثمة أشخاص يتناقشون في الممرّ، لم تكن هيلين تفهم الكلمات، كانت تنتظر الأسوأ، البغض الذي لن يتأخر في الانفجار، السيطرة، اليأس الحضاري، يجب عدم الصرخ أمام الملء، لا يجب على الجميع أن يسمعوا "اذهب إلى الجحيم"! ماذا؟ أعد قليلا! لا لكن ماذا قلت؟ شخص مسكين! أحذرك للمرة الأخيرة! هل جرؤت على ذلك؟ لقد حذرتك، تبا لك" اتركني! اتركني قلت لك!

لا لكن...

لا، لكل واحد حياته مع علب الدموع الخاصة به، العلب الموزعة في أرجاء الجسد. أحيانا نبكي. أحيانا نسقط. أحيانا هو السرطان. الانهيار العصبي. من الصعب معرفة متى ستنفجر العلبة الصغيرة. لقد ضحك رجل حياتها بقوة، لقد أيقظت أصداء ضحكته الأحزان النائمة، كل الضحكات منذ الطفولة، الاحتقار، المفاجاءات غير السارة، الاحتقار، هز الكتفين، البرطمات المقززة. ماذا؟ هذه المرأة بالذات؟ كم؟ كم تدفع إلى هذه المرأة؟

لكان باتريك أعطاها كلّ شيء. لكان قال لها: " أنت عاشقة جميلة"، لأجابته بأن ليس هناك مشكلة، لو رحل معها، حقا، بأكمله معها، لرأى كم أحبته، كانت تشعر بأنها بهيمة مربوطة في حين كانت ترغب في الركض معه، المسافة شاسعة، لهما، سيندهشان من كثرة السعادة، ستقطع سعادة العيش معا تنفسهما، كان ذلك ممكنا، تعرف ذلك الآن، الآن حين تجد نفسها عاشقة

للمرة الأولى، كان حبها الأول، وكم من العشاق قبله، أوهام الزوجين، أن يكونا معا من دون إزعاج أي شيء، الحياة الثابتة والعاقلة، المواعيد، الأسرّة غير المرتبة ومع ذلك لا تتمزق السماء أبدا.

لكن باتريك، حبها الأول، أجمل قصة حب لديها، ضحكة رجل حياتها، ضحكته على الأرسنال، جزيرة سان لويس، كنيسة سان جيرفيه، لو سيليكت، ضحكته على المراكب التي حلما بها، على الجرف تحت جسر ماري، المقعد الصغير قرب شجرة الصفصاف، النور العمودي فوق راهبة القدس التي تكنس صفّ المقاعد، الويسكي الأسمر بدون ثلج، المحار الذي يُحضّره لها؛ لقد ضحك على أماكنهما، محا خطواتهما في باريس، نسي حركات غرامهما، لقد رقصا عاريين وهما يتعانقان في الحمام، لقد هدهدها على ركبتيه كأنها طفل صغير بينما رأسها على عنقه، حملها بين ذراعيه ليجعلها تدور من السعادة، مسدها، لحسها، عرّاها من ثيابها، عزّاها، طلب منها أن تغني وهي متكورة فوقه في الليل، بدلا قلائدهما، معتقداتهما، اختار معها أثوابها الجديدة، اشترى لها لوحات فنية، اكتشفا المحترفات معا، فنانين مجهولين كانوا يتحدثون عنهما، إذ أن الحياة تقرأ من خلالهما، كانا للعالم والعالم قد هيأ لهما.

لقد ضحك عليه.

من المستحيل العودة إلى الوراء، محو القساوة. من المستحيل أن ننزع الرمح المزروع في القلب دون أن نمزقه.

صرخة أقوى، أحدّ من الصرخات الأخرى. باب يصفق.

نهاية زوجين في الممر.

الصمت من جديد، الصمت الكبير الذي يمكن أن نسجل عليه كل شيء، الأرق المقلق، الخوف العصابي من الكهوف الباردة، النار المطفأة، والبهائم حول ذلك.

ثمة غرام ليس سوى خديعة. ثمة فرح يحملنا ويعيدنا متسخين وفضائحيين.

تتذكر هيلين فرحها، وهي طفلة، على شاطئ تروفيل. منزل النسيبة يهيمن على الشاطئ، الخلجان المزججة والتراس الكبير تواجه البحر، والناس الذين يتنزهون مساء على السد ينظرون بحسرة إلى المنزل الباذخ، كأنه سفينة ثابتة فوق المارة.

كان ذلك في بداية بعد الظهر، ذات يوم خريفي. النور شاحب، والليل يحلّ باكرا، باكاد يستطيع المرء التنزه في النهار حتى تغيب الشمس في البحر، وللنهار، في زمنه السرابي، شيء يرغم عليه - مدعوة في غير مكانها تنسحب بسرعة.

تحب هيلين أن تسير وحدها لفترة طويلة مع كلبها. تشعر بالخوف حين يكون الجزر وهي تحب هذا الخوف، فالعدو قريب، والأمواج الحنقى تتضخم خلف الأفق، فعمّا قريب تتجمهر، وتثب بخطورة، وإن كانت هيلين قررت بتحد، بشجاعة حمقاء أن تذهب للقائها، فالأمر يكون قد انتهى. ستتعرف إلى سواد الطحالب، سواد الأعماق، السكون الذي يهدر في الأذنين، المياه المالحة في البطن وتحت الجلد المجعد، ستتوه، ستكون المأساة، ستتكبل نسيبتاها بالمأخذ وسيسبح والدها بعيدا، طويلا، مثلما يجيد القيام به، سيجدها والدها، سيعود بها. إلى الأبد. في المنزل الصغير جدا.

كان المدّ واطئا في بعد الظهيرة تلك، والكلب بدأ ينكش

بعنف المكان الغارقة فيه سكين في الرمل المبلل الذي كان يثير فقاعات صغيرة، بدأت هيلين باللعب معه، من يا ترى سيكشط الرمل أسرع من الآخر، نبحت أيضا إذ تفعل ذلك غالبا، في الخفاء طبعا، وفي ذلك اليوم كان الشاطئ قاحلا. (استنتجت منطقيا بما أن الكلاب تتفاهم بهذه الطريقة فما من سبب حتى لا يفهمان على بعضهما، إن نبحت من كل قلبها بأفكارها المخلصة).

نبحا ونكشا الرمل مطولا، من الفقاعات الصغيرة انتقلت هيلين إلى بناء المتاريس، من ثم تعمير قصر رملي سرعان ما دهسته بقدميها، كانا سعيدين وبدون هموم على هذا الشاطئ، في بعد الظهيرة هذه، هي والكلب. شعرت هيلين بالفخر وهي عائدة إلى المنزل، وكانت أمها مسرورة بالتأكيد لأن ابنتها خرجت وتنشقت الهواء، إذ تعير اهتماما خاصا لكي يتنشق أولادها الهواء، تحب هيلين أن تسمع ذلك، هذه الجملة التي تعني بأن العالم ملكهما ولو قليلا، حتى ولو حصدنا كسنابل القمح، لنا الحق بأن نتنشق قليلا من الهواء، مثل الآخرين.

النسيبة في المنزل. في طابقها. في الطابق الأول حيث الغرف. كانت دائمة اللطف، منتبهة على الدوام، يسعدها كثيرا أن تقيم هذه الفتاة عندها، لكن في ذلك اليوم وفي ممر الغرف في الطابق الأول، كانت تصرخ. سمعتها هيلين تصرخ في وجهها وهي تشاهد النافذة في آخر الممر، النافذة التي تفضي إلى الخارج، إلى الطريق الصغير الذي يقود إلى الشاطئ، وقالت لها النافذة بأنها تستطيع أن تكون في الخارج لكي لا تسمع الصراخ،

تستطيع أن تكون أكبر وأن يكون لديها مكان أوسع لتضع فيه حزنها، واستمرت النسيبة في الصراخ.

توجب عليها أن تخبر والدتها ذلك، فيما بعد. أورلي بيربينيان.

وفكرت هيلين ببساطة أن تروي حماقة ما كانت السبب في صراخ النسيبة في وجهها، السبب الذي أشعل ذلك.

- قولي لي من جديد كيف جرت الأمور، ما الذي جرى بالضبط يا هيلين، أخبريني.

- مشيت على الرمل المبلل بحذائي الجديد.

- أعرف، أعرف، لكن هي، ما الذي قالته؟

- قالت بأنه معيب.

- معيب؟ قالت معيب؟

- نعم أعتقد ذلك.

- وبعد ذلك؟

- بأنه من الجلد.

- لكن بعد ذلك، ما الذي قالته؟

- ...

- ألم تقل: "هل تعتبريني المصرف الفرنسي"؟

ستتذكر هيلين هذه الجملة طيلة عمرها. رعب الوالدة. اسم "مصرف فرنسا" الذي كانت تسمعه للمرة الأولى لكنها فهمته مع ذلك، تفهم كل شيء، كان ثمنه غاليا جدا بالنسبة إلى طفلة مثلها، ربما أمكن للنسيبة أن تختار واحدا آخر، إذ هناك أختان بعدها وصبي أيضا، وكانت هيلين تسدي إليهم النصح، تشير

اليهم، تشرح لهم هذه الحماقة المسماة "جلد". لم تستطع شرح كلمة "إذلال"، كانت احساسا مسهبا، قلقا صغيرا في الكينونة، الألم الغامض في القلب الذي لا يترككم مطمئنين أبدا.

كم تدفع إلى هذه المرأة؟

ولم تعرف هيلين يوما القيام بالحسابات. لم تستطع يوما النظر إلى فاتورة ولا حتى قراءة حسابات المصرف، كان لديها محاسبا يقوم تقريبا بكل شيء وعاملة مصرف تشعرها بأن لطفها معها يعني بأنها زبونة جيدة. لا بأس بالأمور. كانت تستطيع الخروج منها. وحدها. بدون زوج. بدون نسيبة. بدون معين. وحدها. فلو صرخت بألمها الآن، ألمها الذي أصبح في الخامسة والثلاثين من العمر، في هذا الفندق، لكانت الكلاب فهمته بالتأكيد.

تتذكر ذلك الصباح، صباح العشيق الأخير. الجرح الأخير، لم يكن أحدّ، لم يكن أرعب من الجراح الأخرى، ومع ذلك كان محتملا، كانت تقول لنفسها: هذا أمر غير ممكن، لست أعيش هذه اللحظة بالذات، أخطئ، إنه أمر هزلي، ضربة خاطئة. تقول لنفسها: إن كان حقا يقوم بذلك... إن كان حقا يرتدي ثيابه بدون أن يكلّمني، يرتدي ثيابه بسرعة حتى من أن دون أن يدخل الحمام، إن كان يخرج حقا من سريري بدون أدنى كلمة، من دون أن يشاركني قهوة الصباح...

لكنها كانت تعرفه جيدا، تعرفه كثيرا جدا، وتظاهرت بأنها لا تزال نائمة، كي لا تضطر إلى النظر في عينيه، كي لا ترى الجبن أمامها، تعرف أن إيقاع حركاته أسرع من المعتاد، رأسها على الوسادة وتراه بشكل أكبر: يقفل حزامه بسرعة، يلم المفاتيح بسرعة ليضعها في جيبه، ينتعل حذاءه وهو واقف، وحين انحنى بالقرب منها ليهمس لها إلى اللقاء، رجته من أعماقها: "لا تفعل ذلك! لا تذهب من دون أي كلمة، بدون انتباه، بدون أن نتقاسم ولو لحظة واحدة. لا تغادرني بنفس الطريقة التي نغادر فيها عاهرة، لا تفعل ذلك، انتبه إلى أنني لست نائمة، انتبه، لا ترحل!" لكن كما لو كان أصمّ بقدر ما هو جبان همس قائلا "أنا ذاهب". تسمّرت في مكانها، جسد ضخم وقع فجأة في الثلج، قلب يهدد بالمغادرة، وهي، وبما أنها تحبه كثيرا، مدت له يدها لتهمس بالقول مقلّدة صوت شخص نائم: "ألن تشرب

قهوتك؟"

لكنها سمعت صوت باب المدخل وهو ينغلق فقفزت من سريرها كما لو أن صفق الباب رماها بعيدا عن الشراشف. شراشفهما. لقد مارسا الحب مرات عدة في الليل. وقد غادر. أحبته بدون خفر. أظهرت له نفسها بأنها عاشقة كريمة متواطئة غاوية. وقد رحل. بسرعة. كان منهمكا. ما الذي يشغله؟ كيف يمكن المرور من حياة إلى أخرى بهذه السرعة، من امرأة إلى أخرى، من منزل إلى آخر؟ كاد يصبح مجنونا، هذا الرجل الذي يركض تحت الحافتين، الذي يجتاز النهر المستعيد نفسه من طرف إلى آخر دون أن يتوقف أبدا. يشعر بالألم في كل مكان، البطن، الرأس، الكليتان، مرض يحل مكان الآخر، يركض دوما وربما لا يشعر بالراحة إلا حين يرتدي ثياب الآخرين كي يمثل على خشبة المسرح، في السينما، حين تتبدل الأزمان والإضاءة، حين يحفظ دوره، الأماكن والتعليمات المحددة: "ابتسم! عال. انظر قليلا صوب الكاميرا... نعم... ابتسم بشكل أقل...هذا هو، هذا هو الأمر، جيدة ابتسامتك، نعيد التصوير!؟

- هل كان الأمر جيدا؟ هل وجدتني جيدا؟

أجل، أجل، وجدتك جيدا. اللحية تمام التمام. الطقم جيد. الابتسامة جيدة. تم التصوير بشكل جيد، إنارة جميلة جدا، مشهد عظيم،

عظيم عظيم جدا.

وفي هذا الصباح، بدون أي كلمة، بدون أي عطف، هذا الصباح، منذ عشرة ايام، كان الصباح الأخير. لم يعد يحتاج لأن

يركض من امرأة إلى أخرى، من منزل إلى آخر. لقد ضاعت هيلين، قررت أن تضيع. أستحق الأفضل بطبيعة الحال، قالت لنفسها. أستحق أفضل من قصة مسروقة، من فتات حب، استحق أفضل من هذا الرجل الذي يتباهى بأنه عشيقي لكن لا وقت لديه لأن يشرب القهوة معي، أستحق أفضل من هذا الزوج الذي يدعوني إلى منزله لأن امرأته "تحب فعلا ما أقوم به" ولأن صدرها واسع.

لكني صغيرة. روحي مسكينة. روحي عتيقة. لا أستطيع العيش ثلاثيا. صغيرة جدا ويمكن أن أقف في راحة يدك، تستطيع أن تأخذني حيثما شئت بدون أن تفقدني، أنا صغيرة جدا احتاج إلى أشياء قليلة، لتنهض قبلي قليلا، بدقائق فقط، ومن ثم تذهب إلى المطبخ، ستطلب قططي منك أن تأكل بينما تحضر القهوة وبينما تمتم: "أصبحتم سمينات جدا، تطعمكم كثيرا"، لأضحكني الأمر، لسمعتك تمتم ولدخلت بسرعة إلى الحمام كي أهيء نفسي لتراني أقل قبحا، أقل تعبا في هذا الصباح الباكر، لتطلّب الأمر دقائق قليلة، فقط الوقت كي لا تشتمني، لكي لا تعاملني بشكل سيء، حين نجد الوقت لممارسة الحب خمس مرات في الليل فلدينا الوقت من أجل فنجان قهوة، من أجل إطعام القطط، من أجل التمتمة ومن ثم من أجل أن نقول "صباح الخير يا حبي، هل نمت بشكل جيد يا حبي، كان الأمر رائعا يا حبي، لقد تفاجأت، كنت فرحا، كنت سعيدا، كما لو كان عمري 15 سنة بين ذراعيك، بدأ الأمر وكأنه لغز، ألا تجدين ذلك، أتعرفين، في لحظة من اللحظات كنا في استرفاع،

لا تضحكي، للحظة طرنا من السرير، من الغريب أن لا تصدقيني، خذي، اشربي قهوتك يا حبي، الطقس جميل على ما أعتقد."

لم يعد يتوجب عليه الركض، تفضل أن تحتفظ داخلها دهشتهما وليبق ثابتا. هناك. مسمرا هناك. في ذلك المنزل الذي لا يستطيع دفع ثمنه. الذي لا ينجح في مغادرته.

كانت تعيش في هذه اللحظة قصة حب ثابت. "واجلب لي قلبه في علبة!!!" كانت الملكة اللئيمة على حق. القلب في العلبة أضمن بكثير. لكنه ضحك. وشعرت بأن قلبها ينتفض، بأن الدم الأسود ينبجس، معجزة مرعبة. ضحكة تقف ما بين التفكك والانبعاث.

"إذ قال اسحق بأنه سيغادر امرأته من أجلي". كلماتهما الأخيرة. ضحكته الأولى. "سيغادر زوجته من أجلي". من أجلي. زوجته من أجلي. . . .

لم يكن إطار الصورة في مكانه. جهاز التلفزيون الصغير معلّق في زاوية السقف. الخزانة فارغة. منزل دميّة بني بطريقة سيئة، مهملة. في البداية رغب صاحب الفندق في ترتيب المكان، فكّر في لون سجاد الحائط، ستائر الغرفة كما ستارة الحمام. ثمة تناسق في هذه القباحة. عادي برد شهر نوفمبر في هذه الغرفة. كل شيء رتب بانتظام، الصيد مفتوح، الليل أسود، معرض الكتاب السنوي، زبائن الفندق، تم التفكير بكل شيء ولكل واحد مكانه وكل واحد يعرف ماذا يفعل، في أي ساعة يوقع، في أي ساعة القطار، في أي ساعة ترتب الغرف، في أي ساعة ينطلقون إلى

الصيد،، في أي ساعة يتغزلون بنساء الآخرين ويعودون إلى منازلهم، في أي ساعة يقولون "أحبك" لعشيقاتهم ويتحققون من واجبات بناتهم المدرسية، و"يجب تصليح السقف" لامرأة أخرى. من جانب هناك الحب، ومن جانب آخر الهموم الصغيرة، المسؤوليات، رسائل التذكير وصرف العملات، نعم ثمة تناسق في هذه القباحة.

صباح العشيق الأخير، قبل أن تكون هناك صباحات أخرى. قبل أن يجرّ هذا الصباح معه رحيل سريع آخر، وقاحات أخرى، قبل أن يصبح هذا الصباح عادة، تعتاد على كل شيء، تحتمل كل شيء، كل شيء. لكن لا الوحدة.

ومع ذلك قالت هيلين لنفسها تستحق الوحدة أكثر من ذلك.. الباب الذي يصفق. النهار الذي يشرق من دون أن تشاهده أعين العاشقين، من دون أن تمتزج ألوانها به قليلا، قبل أن يهب نفسه للآخر، قبل أن يرحل في النهار، في النهار المشرق، النهار الرائع لأننا عاشقين، وقبل أن ننظر في المترو إلى الآخرين ونحن نبتسم ونفكر: "لو تعرفون كم أجدت ممارسة الحب هذه الليلة، لو تعرفون كم كنا سعداء وخفافا، الحياة جميلة كيف نقول لكم كم أن الحياة رائعة، لا تحزنوا فالحياة مليئة بالألوان المجهولة"، ولنستمر على هذا المنوال طيلة الساعات ولنحب كل شيء، الوقت الذي ينقضي، النور الذي يتبدّل، العالم الذي يتنزه، الناس الذين يركضون ويتسكعون، أن نحب كل شيء لأن كل دقيقة تمضي، كل ساعة تغيب، كل تبدل في الأنوار يقربكم من المحبوب، يأخذكم بهدوء إلى اللحظة التي طالما

انتظرتموها، اللحظة المقدسة للقاء القادم.

هل يستطيع أحد التواعد في هذه الغرفة؟ هل نستطيع أن نحب ونتألم لدرجة أن لا نرى معها هذا المجهول المثلج والثابت، قباحة هذه الغرفة المعدة؟ كم من النساء والرجال، كم من مرة ابتلعوا أدويتهم قبل أن يناموا في هذه الغرفة؟ الحبوب البيضاء كي تخفف الكيمياء شقاءهم قليلا، كي ينقذهم العلم من الحزن قليلا، كم من رجل وامرأة فتحوا "الميني - بار" هذا، وهم يجلسون على السرير كي يبلعوا البقاء الموصوف لهم، وفوق رؤوسهم التلفاز في الزاوية والإطار المنحرف؟

كم الساعة الآن؟ لمن تتوجه بالسؤال؟ ما من ساعة حائط، ومن المستحيل أن تشعل الهاتف. مخافة أن تقرأ الرسائل. ترتعب من فكرة أن لا تكون هناك رسائل. قررت بأن هذه الضحكة كانت بدون عذر، بأن هذه الضحكة هي قدرة الشر وأن لا تنبطح بل أن تسهر، أن تحتفظ بيقظتها وذلها مثل سدّ أخير.

ماذا يفعل الآن الرجل الذي ضحك، الرجل الذي لا يمكن أن يركض من منزل إلى آخر؟ ربما كان يمشي في غرفته الخاصة، غرفة السيد... غرفةٌ مستقلة، خبث مشترك.

لا يهم ما يفعله. حتى وإن كان مدمى، حتى وإن كان يخفق، ستحتفظ بالقلب في العلبة الصغيرة.

هي أيضا كانت ركضت من منزل إلى آخر، من امرأة إلى أخرى، بيربينبان أورلي، ما من واحدة استطاعت التخلي عنها، جيب مليء بالمال، الأخرى مثقلة بالحصى الصغير، كي تجد طريقها، كي تغني، كانت تلك لعبة بينها وبين شقيقاتها، كنّ

يضمن حصى صغيرا في أيديهن المغلقة ويهزنها وهن يغنين: "كولوكو، كم من الدراهم في حذائي؟" كان على الأخرى أن تتكهن حينذاك بعدد الحصى الصغير المخبأ في راحة اليد، بيد أن أختها الأحرى كانت تخسر دائما، إذ من المستحيل التكهن بذلك، تكهنوا كم يخبئون من المال.

كان لدى النسيبة خزنة رمادية اللون، أكبر من الخزنة الموجودة في غرف الفنادق. كانت ملفوفة بقماشة عليها صور أزهار تضع فيها أكياس بلاستيكية شفافة، وفي الأكياس الجواهر والنقود الورقية.

لم تكن هيلين تعرف بأنه يمكن للأوراق التقدية أن تكون كبيرة وملونة، أن تكون أكبر وأكثر ألوانا من أوراق المونوبولي. كانت الخزنة موضوعة أرضا لذلك يتوجب الانحناء كي يدار الزر على مهل، الزر الأسود ذو الشيفرة السرية. بعد ذلك، يبدو الأمر سهلا، إذ يفتح الباب وتخرج النسيبة ما في داخل الكيس البلاستيكي.

.في باريس كانت هناك أوراق نقدية أكبر مما هي عليه في بيربينيان. باريس مدينة كبيرة. عاصمة فرنسا. في ساحة الفرصة المدرسية كانت الزميلات، المتعجبات والحسودات، يسألن هيلين: "هل رأيت مشاهير في باريس؟" وأجابت هيلين ذات يوم: "نعم، فرانسواز هاردي". لم يعرف الأمر أي نجاح، أضف إلى أنه كان كذبة. لكنها كانت تحب فرانسواز هاردي كثيرا، إذ أنها تشبه أختها البكر، وكانت تغني موت صديقتها، الزهرة. نحن أشياء قليلة وصديقتي الزهرة ماتت هذا الصباح.

لم تستطع هيلين أن تقول: "في باريس رأيت أوراقا نقدية أكبر من الأوراق التي في بيربينيان"، لأنها بدأت تحس بالشك، إذ رأت ذات يوم عامل محطة وقود "جيان كازينو" وهو يبحث عن الفئات الصغيرة في المحفظة المعلقة إلى رقبته، كانت مليئة بالأوراق النقدية، كانت تطفح منها، بدا الأمر بمثابة اشراق، وحي، قالت هيلين لأبيها: "أبي، أعرف الطريقة التي يمكن أن تكسب فيها الكثير من الأموال، من غير المجدي أن تبقى بناءا، عليك أن تعمل في محطة وقود، العامل هناك لديه الكثير من المال في محفظته، لقد رأيته، أقسم لك بأني رأيته! ضحك والدها وهو يشرح لها بأن عامل المحطة أكثر فقرا منه، وبأن المال ليس ماله، إنه مال الوقود، مال البترول، وما أن تنتهي فترة عمله عليه أن يعطي المال لرئيسه. وغالبا ما كانت هيلين تفكر بعامل المحطة الذي بحوزته هذا المال طيلة النهار في محفظته والذي عليه أن يعيده في المساء، هذا الرجل المليء بالمال كان فقيرا، أكثر فقرا من البناء، من الأفضل أن نلمس التراب والحجر، أن نتحقق من استقامة الجدران، أن نبني المنازل للآخرين من أن نتنشق رائحة الوقود. لكن أن نتنشق العمل معناه أن نتنشق التعب، مثل أبيها، ابيها الذي لا يعرف بدون شك ما تعرفه: في باريس الأوراق النقدية أعرض من الأوراق التي يحملها بين يديه.

ولعبت بهذه الأوراق، حاولت أن تفهم كيف تعمل، فالمال يروح ويجيء، كيف بالامكان التخلص منه، استعادته، معاملته بشكل سيء، الرغبة فيه من جديد، وكان الأمر سهلا جدا لكي لا تلعب بها إلا مرة واحدة، إذ أن هذه السهولة كانت مرعبة.

كانت في السادسة أو في السابعة من عمرها. اقترب الميلاد فأخذتها النسيبة إلى محل ألعاب. هنا. كل شيء هنا. الرغبات كلها موجودة في غرفة واحدة، كل الرغبات حولها على الرفوف، أو موضوعة على الأرض وفي الواجهات. المحل غير حقيقي. وجود هيلين فيه أمر متخيل. يشبه المكان، في رفاهيته الواضحة، في ازدهاره المحبب، محلا للألعاب مرسوما في كتب الأطفال، كأنها صور كتب مارتين المتكاملة، التي نرغب في الذوبان داخلها، في أن نلمس قليلا هذا الكمال وهذه النظافة، أن نلمس تكامل الديكور والشخصيات.

نظرت هيلين إلى الألعاب. نظرت النسيبة إلى هيلين وهي تنظر إلى الألعاب. عليها أن تتكهن بما يدخل السرور إلى قلبها. تعرف هيلين هذا الأمر. إنها الفقيرة الصغيرة، الفقيرة العزيزة، إنها لحظة القيام بأمنية حتى تحققها الساحرة. لم تجرؤ على لمس أي شيء، على أن تختار شيئا. الأطفال الآخرون حولها كانوا أكثر راحة، كانوا معتادين ومبتسمين. لم تجد هيلين الأمر مضحكا، الألعاب منتفخة بعزة النفس والاحتقار، لا تنتظر إلا الأولاد الأغنياء، فالخبراء يعرفون قيمتها، أما هي، فلا تعرف

ماذا تريد، إنها ليست من هذا العالم، عالم الرغبة المعبر عنها.

وصبرت النسيبة. انتظرت. تكلمت مع البائعة وهيلين تخشى من أن تتكلم عنها، عن فقرها عن فقر والديها (غالبا ما تقول النسيبة: أمك الفقيرة!" هكذا، في نفس نصف - متقطع، نصف - متعجب، اعجاب متعب، "أمك الفقيرة!" ومن ثم لا شيء خلف ذلك)، وتشتاق إلى أخوتها وأخواتها بشكل رهيب. تريد أن تكون معهم في هذا المحل كي يهربوا معا، بلى تريد أن ترحل لأنها واثقة من أنهم سيتعرفون عليها، تعرف بأنها في غير مكانها. وليتوقف ذلك، ليتوقف قداس النسيبة والبائعة الخفيض، تجرأت على النظر إلى الدمية الشقراء ذات الشفتين المدوّرتين والأهداب الطويلة المستقيمة، إلى الكلب الألي الذي يقفز والذي يرتفع بطنه ويهبط وفق إيقاع تحركاته، تجرأت على النظر إلى المأدبة الصغيرة، الجميلة والرقيقة جدا، مأدبة "شقاء صوفي"، مأدبة فتيات صغيرات مع خادمة وحمار رمادي اللون، إلى جانبها غرفة نوم وصالة ألعاب، واستشاط قلب هيلين، وفي الخارج الليل وهي في قلب هذا المحل المضاء، في قلب الحلم، ألقت نظرها على ثلاثة أشياء ساحرة من المتعذر الحصول عليها، طلبت منها النسيبة أن تتنحى جانبا، إلا أن هيلين رأت البائعة بشكلها البشوش وهي تأخذ الدمية والكلب والمأدبة، لقد تمّ الأمر، إنه بسيط، نظرة واحدة. نظرة فقط وأصبحت رغباتها واقعا.

دفعت النسيبة الثمن. تفتح محفظتها وتدفع. قالت بصوت خفيض: " سيأتي السائق للاتيان بها"، تخرجان من المحل

بأيدي فارغة كي تكون المفاجأة كاملة يوم عيد الميلاد.

سيبدأ الهوس إذا. كلّما فكرت بالأمر، كلّما رغبت هيلين فيها، بالألعاب الثلاث. وكلما رغبت فيها، كلما كرهتها. كان الأمر مزيجا غريبا، احساسا بدون اسم، كما لو أنها معركة ضد لا شيء، كانت تشعر بالثقل، بالمرض، لم تكن تفكر إلا بها، تخيلت الاسم الذي ستعطيه للدمية، لقب الكلب، والحذر الذي يلزمها لتلقط الملاعق الصغيرة والفناجين كي تقدم الشاي إلى شقيقاتها. وكلما فكرت بهذه الإلفة، بهذا التملك، كلما رغبت في البكاء، ثمة كآبة تنتشر لا تفهمها، وذات صباح، وبينما كانت تتناول فطورها مع النسيبة في السرير الكبير، أطلقت حلمها، هكذا، بجملة حمقاء، إذ قالت: "أكرههم، الدمية والكلب والمأدبة، هذا كل ما أتمنى أن لا أحصل عليه كهدية." اسودت نظرة النسيبة، بالكاد انفرجت شفتاها لتهمس: "بالفعل؟"، لتردف بعد ذلك: "سأرى صديقة لي بعد الظهر، لن اصطحبك معي".

ربحت هيلين. خسرت هيلين. فقدت ألعابها. كسبت سلطة. أريد. لم أعد أريد. آخذ. أرمي. سأتألم لو رغبت. سأعاقب نفسي كما أرغب وحين أرغب، سأبقى فقيرة، أنا حمقاء ومليئة بالندم وبكماء في حين أرغب في الصراخ تعبيرا عن أي درجة أريد أن أضم الدمية بين يديّ، هذه الدمية التي تفوح من وجهها رائحة الفانيلا، وهذا الكلب الذي يتحرك، لكنها تصمت، مثل المراكيز الثابتين وراء ظهرها، في لوحة جوي التي لا تتحرك إلا بأوامرها، كل شيء تحت أوامرها، هذا هو الغنى، هذه هي السلطة: القرار.

لم تمنع النسيبة من الذهاب. رأتها وهي ترحل بعد الظهر لتبديل الألعاب. بقيت في المنزل الكبير الموحش والنظيف الذي تفوح منه عطر الورود المقطوعة، الباقات الكبيرة في المزهريات الصينية، الذي تفوح منه رائحة الموكيت، رائحة الجلد، رائحة الأنديف الذي طبخته الخادمة، وامتزجت المرارة بالثراء، القرف باليسر.

وعشية الميلاد حدثت المفاجأة. حصلت على هدية لم تتمناها قط، لعبة بقيت تكرهها طوال حياتها، انبثق حقد من داخلها تجاه هذه اللعبة الكريهة: مكنسة كهربائية ذات لون برتقالي وأبيض.

وبينما كانت تجربها على السجادة البربرية في صالة الطعام، ضحك الراشدون الذين كانوا عديدين ذلك المساء وتحدثوا فيما بينهم من دون أن يعيروها انتباها، هي التي كانت تمرر مكنستها الكهربائية البرتقالية وهي تصرّ على اسنانها، هي التي تفكر بأخوتها وأخواتها هناك، في الطرف الآخر من فرنسا، كان اخوتها وأخواتها يجهلون محلات الأغنياء. وقد حقدت عليهم كثيرا.

ما الذي يفعله الآن، الساخر، الأسد المأسور في غرفته الخاصة، هل يتخيل بأنها مع اسحق، لقد اتصلت باسحق في منتصف الليل لتقول له، في النهاية، إن الرجال المتزوجين... هل تستمر؟ ولم تعد تشعر بالبرد، كانت تتعرق مقابل اسحق، كانت تنساه في مواجهة اسحق وكان بعيدا، لا يستطيع فعل شيء حيال ذلك، لا نستطيع القيام بأي شيء حيال شخصين ينجذبان إلى بعضهما، لا نستطيع أن نمزق ما يلتحم بغموض، ما يتجمع بعيدا عن الحسّ الجيد، فليس على المقهورين والمدهوشين إلا أن يشكلوا فئة من الذين يشعرون بالغيرة، إذ أن العاشقين لا يفهموا من ذلك أي شيء: أن يضيعوا دائما وأن يبقوا ظمئين، أن يبقوا بعيدين عن الآخر، أن يكلموه في الغياب وأن لا ينجحوا في الاتحاد أبدا. العالم المحيط بهم هو عالم المتسكعين، الفقراء المهملين الذين يمشون بينما العشاق ينسجون عوالم وأسرار، يحب العشاق مثلما نُقَطّر عطرا، مثلما نقطف الأفضل، الأثمن، الحب هو امتياز لا يخص العالم كله.

ولا تنتمي هي لأحد. لقد عادت إلى العادي، تشكل جزءا من النوع البشري، نوع محايد، مجموعة من العابرين، تشكل جزءا من الحشد، أي بالضبط تتبع الحركة، جنود الرتابة الصغار.

لكن ما الذي يفعله الآن؟

نحب ونقول: "لن نغادر بعضنا أبدا" ونعرف حقا عدم صوابية ذلك. لذلك نقول لأنفسنا "إن تركنا بعضنا فسنبقى

أصدقاء دوما" وهذه كذبة إضافية. إذّاك نهمس بهدوء تام "سنحترم بعضنا دائما"، ونخفض أعيننا كثيرا إذ نشعر بالعار قليلا، ونعرف جيدا كم هو هذا "القليل" لن يأتي أبدا، نغادر بعضنا، نغادر بعضنا بالدموع والتمزق، نغادر بعضنا كما لو أننا نفقد الحياة، كما لو أننا نفقد طفولتنا، مراهقتنا، كل هذه الأعمار الممتصة مع الفراق، الفراق الرهيب، ونغادر بعضنا. نعرف ذلك. كي نعزّم المصير السيء نتكلم عن المستقبل "سأحبك دوما"، بيد أننا نكره بعضنا، نرفض بعضنا، ننسى بعضنا. يختلف الجسدان، لا تلتقي النظرات، ولا تبقى الطرقات والدروب هي نفسها أبدا. كائنان يفترقان، قماشة تتقطع، مسرح يشتعل، مسرح الحب الكبير، اللحظة الوحيدة الساخرة، العبارة الفاقدة قدسيتها، أن نكذب، أن نكذب فقط وأن نفقد دمانا.

ما الذي يفعله؟ ما الذي يفعله الآن ذاك الذي ضحك؟ ما الذي نفعله بضحكة غير مشتركة، كيف يمكن احتواء كرة النار هذه، هذا الارتداد، الصدى الذي لا يحتمل لضحكته في غرفته الخاصة، الغرفة التي لا تعرفها، إذ لم ينتظرها هناك أبدا، لم يرتب لها السرير، لم يضئ لها النور كي يستقبلها، لم يفتح لها ذراعيه في هذه الغرفة التي حلم فيها بها، التي علق على جدرانها اللوحات التي أهدته إياها حيث وضع صوره وكتبه ورسائله، هذه الغرفة حيث هو موجود الآن وحده. مع ضحكته.

وكانت وحدها في ليل غير واقعي، في ليلة ضبابية ستتلاشى عمّا قريب، ولن يشرق النهار إلا على لا شيء، لم يحدث أي شيء، ما من حب، ما من قصة حب، ما من زنا تافه، ما من علاقة ما بعد زوجية مشتركة. منذ عهد موسى هناك "إمرأة الآخر"، منذ ألواح العهد هناك الرغبة في الذهاب لرؤية ما يحدث خارجا. والعودة من هناك. وأن يضحك في غرفته. في منزله. حياته. بدونها. هي الموضوعة جانبا فقط، البياض الكبير تحت خطواتها.

باريس مدمرة.

الأرسنال، جزيرة سان لويس، كنيسة سان جيرفيه، لوسيليكت، كلها مدمرة. كلمات الحب المهموس بها ساخنة جدا على الوسادة، كلها مدمرة. المواعيد، العناق الشديد، المفاجاءات، أعطني يدك، تعال قربي، كل ذلك انتهى. الاحتفالات، اللقاءات، كل ذلك انتهى. هل يعجبك ذلك؟ وضعته من أجلك، اشتريته من أجلك، هيأت نفسي من أجلك. جئت إلى العالم من أجلك، من أجل هذه الدقيقة، من أجل هذه اللحظة، من أجل هاتين الذراعين، من أجل هذه الرائحة، كل ذلك انتهى. معنى الحياة. رغبة الحياة. الدوار. المستقبل. المستقبل الرائع. كل ذلك انتهى.

أحبك

أنت حبي الأول

أنت قصة حبي الأولى
أنت أجمل قصة حب لديّ
كل ذلك انتهى.

الأيام الفارغة. الأيدي الفارغة. الأسرّة، الخزائن، القطارات، الفنادق، الليالي، اصبحت فارغة. تمدّ ذراعيها، فلا تلتقط شيئا، تلفظ اسمه، فلا يسمعها أبدا، تتعرى فتشعر بالبرد.

لا شيء بعد.

وكانت في غرفتها من أجل ذلك. كي تفهم بأن الأمر هكذا. الحياة. هذه الجدران. هذه الاكسسوارات. الأثاث المصنوع من الخشب المعاكس. الشاشة السوداء المعلّقة في السقف. اللوحة التي بدون روح. الستائر التي بدون ألوان. هاكم، هنا، هذا هو كلّ شيء، هذا لا شيء، لا معنى له، لا نهتم لكن يمكن أن نشكو في هذه الغرفة، يمكن أن ننام، أن نتبول، أن نغتسل، حتى أننا نجد فيها قناني ويسكي ومياه غازية، هناك هاتف كبير وفطور يقدم في الطابق قبل العاشرة صباحا، غرفة مقبولة، غرفة لا يمكن لنا أن نصارعها. حياة بدون اعلان، نضال غير مجدي.

وكانت جاءت من أجل هذا.

كي تسمع هذه الضحكة في هذه الغرفة.

لو سمعت هذه الضحكة وهي أمام البحر، عند أسفل جبل، في قلب كنيسة، ضحكة في الفضاء، في النور، لو كانت في سريرها هذا المساء وسمعتها، لكانت ضحكة من أجلها، لبدت أكثر احتواء، أقل قتلا، ضحكته هو في قلب حياتها، لبدت تناسقا كاذبا : لجعلها تظن بأنها موجهة لها، بأنها كانت مشتركة.

بيد أن الضحكة في هذه الغرفة كانت مرغوبة، كانت واضحة، كانت تعني انتهى الأمر، دُمر، انتهى، دُمر، هذه هي الحياة، تتناسب هذه الضحكة مع هذه الغرفة، هذه الضحكة هي هذه الغرفة، إنها ضحكة الحياة التي بدون اسم، الشاعرة بالأسف، التي بدون ماضي أو مستقبل. تمرّ هنا ولا أحد يتذكرها، ومن سينام غدا في هذا السرير لن يجد هدبا أو شعرة أو رائحة منك. كم من مرة، كم رجل وامرأة قبلك، لا تعرف شيئا عنهم، لم ينكتب أي شيء، لا أنينهم ولا صرخاتهم، تنشقوا عاليا، مشوا، ارتجفوا، وانمحى كل شيء، نُظف كل شيء، كُنس كل شيء، انتهى كل شيء، دُمر كل شيء.

نظرتِ إلى نفسك في المرآة منذ لحظات وابتسمتِ، ابتسامة غاشة، وإن كانت هذه الابتسامة صادقة، لو كانت فرحة، لو كانت جميلة لكان الأمر سيّان. الجميل، القبيح في هذه الغرفة لا يعنيان شيئا، فالمرآة لا علاقة لها بالأمر إذ رأت الكثيرين غيرك.ثمة عرض أمامها طيلة 365 يوم في السنة.أي أهمية لصدق ابتسامتك، صباحا أو مساء، متبرجة أم غير متبرجة، أي أهمية للأمر، لا أحد ينظر إليك، لا أحد يستطيع القول "تناولت العشاء مع هيلين مساء البارحة" وعشيقك ينام في هذه اللحظة ولا يتذكر أنه اتصل بك هاتفيا، لن يتذكر لا اسحق ولا ضحكته، إنه يحلم، يحلم حلما ينساه عندما يستيقظ، إنه حلم أحمق، متواتر، الحلم عينه منذ أن كان صغيرا، حلم من دونك، لا مكان لك في كينونته، كنت على سطح المياه، إنها قصة جسدين قصة الحب هذه، لكن أين القلب؟ أين الروح؟ أين

اللاوعي؟

هذا الرجل الذي ينام على بعد مئات الكيلومترات من أرقك، قد تبخر. ينام. في النسيان. بدون ألم، بدون أسف. بدون معرفة. ليغرق في نعاسه. سيضيع من دونك.

أطفأت هيلين الضوء عند ذاك، وضعت رأسها الثقيل على الوسادة، كانت مخدرة من جراء الدموع، برد الفندق، رغبت في أن تضيء شمعة، أن تكتب كلمة أن تتلو صلاة، رغبت فيما لو يتحقق شيء ما، فيما لو يقال أي شيء، تحالف ما، مؤامرة ما، كي يفرض الواقع نفسه، بالتأكيد، الآن، بطريقة لا تقبل الجدل.

وفعلت مثل الآخرين. نامت. وقّعت تنفسها مع تنفس النائمين الآخرين حولها، في فندق الغرف البشعة التي لا يمكن أن نقوم فيها بفعل أي شيء سوى اطفاء الأنوار.

كان زمن الوعي والكلاب المهملة، انتفاضة التناقضات والكآبات التي يمتزج فيها كل شيء ويختلط ببعضه البعض، الضحكات في الهواء، الشيكات البيضاء، الأطفال المستأجرون، العشاق العابرون والحب المشوه، الحب الخاطئ، الحب الكاسر، الحب المخترع، التي طالما رغبت فيه، الذي طالما انتظرته منذ لعبة الزواج حيث كانت تضع الستارة على رأسها بينما تبارك اخواتها هذه العملية: "نعم، أريده". أجل. أريده. لذلك أخترعه، أشير إليه: أنت، باتريك، ستكون حبي الأول. سألبسك وأعطرك وأجملك وأعمدك: حبي الأول. سيكون هذا اسم قصتنا، عنوان روايتنا!Premier amour . (الحب الأول). عنوان أنيق. يحملنا. يعطينا الرغبة، مثير، حسيّة الكلمة التي لا تقارن: الحب الأول! My first love إنه جميل أيضا IL primo amore. إنه يسافر بدوره، سيبيع في البلاد بأسرها. "أهديك إياه يا باتريك، يا حبي الأول".أي زوجين رائعين، الكاتبة والممثل. باريس تحت أقدامهما، الأرسنال، لو سيليكت، جزيرة سان لويس، وراهبة أورشليم الصغيرة التي تصّعد مع الله ما لا تستطيع أن تراه. ما يعيشانه، هي وباترك، أمر غير معقول. لقد حدث، حبي الأول، حب في باريس. أجل. أريده. باريس في

الليل، باريس في النهار. والقبلة الفرنسية على المقعد بالقرب من الصفصافة حيث تجرآا وتحدثا عن الطفل: "طفل منك يا حبي، يا حبي"، لقد تحدثا عن ذلك بدون خوف لأنهما لم يصدقا ذلك بالتأكيد. "طفل منك" جميل قول هذا أيضا، أكثر الفانتسمات جنونا، ذاك الذي سيفسد كل شيء تحقق لتوه، إنه واقع يحملهما إلى مستوى الأرض، هما اللذان يكيران في ديكور الحب الرائع المخترع، لأنه لا يمكن له الانتظار، يجب أن نحب، على ذلك أن يحدث، إذاك نرمي بأنفسنا فيه بكل أرواحنا. أهبك حياتي، ابلسم جراحي، أبتسم لأخطائك، اقبل بعجزك. أحبك. أحب كل شيء. إن جبن الزوج ليس سوى استقامة رائعة لرب الأسرة، جبن العشيق ليس سوى التمزق الذي لا يمكن تجاوزه للرجل العالق بين حياتين. كم هو صعب هذا الأمر يا حبي، يا حبي الأول، كم هو صعب أن لا نرغب في جرح أحد وأن لا نكذب، إنه أمر استثنائي، نادر، أفهم بأننا نريد الاحتفاظ بك دائما، هي وأنا، هي مثلي أنا، يا حبي الأول، يا زوجي الأول، نعم أعرف، إنها امرأة ساخطة، ساخطة وخبيثة، أعد قول ذلك، قله مجددا من أجلي، من أجل أن أشكوك وأقارن نفسي، انا التي لا تقارن، العشيقة الخبيرة، تلتذ بين ذراعي وتسأم معها، هذا رائع، تسأم معها وتضحك معي! اضحك! لتضحك إذا يا حبي، أنظر، لا زلت أحتفظ بستارتي الصغيرة على رأسي، أمر رائع، اليس كذلك، منذ 35 سنة وأنا ألعب دور العروس مع شقيقاتي: نعم أريده! خطوت خطوة أخرى، أنزع الستارة، آه، الكارثة، الكارثة، لنتمهل، لنسير الهوينا! لن

تغادرها أبدا، الكلب في حجره في غرفته المستقلة، يلعب دوره جيدا في الخضوع، الرسن قصير يا حبي الأول! إن اندفعنا، كبالونين مهملين في سماء باريس، بالونان منتفخان بالهواء والكبرياء، أوه يا حبي، أي حب هو هذا! من يستطيع فهم ذلك، لا أحد، أنت، المختار، الذي اختاره قلبي، الذي اختاره خيالي، الاختراع الذي يرتد على صانعه، آه، آه، آه! أي ضحكة هي هذه! قال بأنه سيترك امرأته من أجلي! النكتة الظريفة، كلا إنها مضحكة، مضحكة جدا، ترويها بشكل جيد، لكني أروي دائما بشكل جيد، إنها مهنتي، قوتي، بطاقة الزيارة، أحب ضحكتك...

كلا. هذا المساء لم أعد أحبه.

ولا أريد أن تتمزق الصفحات التي أكتبها. إن كتبت "حبي الأول"، فهذا معناه حبي الأول. لا علاقة لك بالأمر. فقط صدق القصة. أرويها مثلما لا يرويها أحد.

كان يا ما كان
كانت المرة الأولى
حبها الأول
قصة حبها الأول

وأخيرا ألقت هيلين سلاحها. تنفسها ثقيل، منهكة. يداها مفتوحتان. جفناها مغلقان. شطت. بدون أحلام وكوابيس. بدون فوضى أو تناسق.

القلب ثابت.

هذه هي الراحة إذا. غياب الصدمة. هذه اللحظة الكبيرة، بدون رغبة، بدون عاطفة، الجسد والروح مرتبطان بحيادية بدون مفاجاءات. كل الأبواب مقفلة، المخارج مسدودة، الستائر خفيضة، تهتم الشمس بقطب آخر، والحقيقة كانت هنا. في هذا التلاشي. ومع ذلك، كانت هيلين تنام بدون أن تذوق هذه الراحة، لا تعرف شيئا عن جسدها المهمل، عن روحها المعلقة، لا تعرف شيئا عن ذاكرتها الممحوة، عن البعاد البطيء الذي يعيد بناء قوتها على طريقتها. تغيب عن العالم لكن العالم يستمر في نسج نفسه، لا يتوقف عن بناء عنفه، إنه منتفخ بالدم وبالرغبة في الدم، مثل صرخة لاانسانية، جافة، منتزعة، سريعة: الانفجار. يأتي من الخارج، لكن هيلين استقبلته بقلب مفتوح، برعشة، الخوف الطارئ، قفزة القلق الكبيرة.

جلست على السرير، أشعلت الضوء، أصابعها مبللة مترددة على قاطع التيار، لزمها عدة دقائق كي تتذكر. ما الذي تفعله في هذه الغرفة، من أين تأتي هذه الغرفة، لِمَ معطفها على الكرسي، حقيبتها على الموكيت، عبر موجات متلاحقة تأتي مقاطع حياتها وتسلسل الأحداث، لا سولوني، معرض الكتاب، الليل... وضحكة باتريك، نهاية الدجل. عادت حياتها بأسرها لتتموضع في مكانها. هنا. عند قدم السرير. منطق حياتها الفوضوي. تنفست بعمق، أنين صامت. تنهيدة تقريبا. كل قذارة الإنسان في غرفة زهيدة، في الغرفة المحجوزة باسمها. لقد انتظروها طويلا. قالت

اسمها. أعطوها المفتاح مثل حظ أخير. ما فهمته فجأة، ما حدث لها، ما تعرضت له. هذه البداهة التي تذوب عليها تجعلها تصاب بالدوار: كانت تعرف. الآن، وللمرة الأولى في حياتها تعرف بأنها لن تشعر بالخوف أبدا. لا شيء. لا أحد، ولا أي مكان، ولا أي حدث، لا شيء يستطيع اخافتها. كان ذلك شعورا جديدا، معرفة غير مسبوقة. هي التي تظن أنها تعرضت لكل شيء: الفرح، الوحدة، السكر، الألم، التطلّع، الفخر، الشك، الشجاعة، الانخطاف، الرعب. لم تشعر لغاية اليوم بهذا اليقين، بهذه القوة التي تحمسها والتي تثير قدرتها تقريبا: لن تخشى شيئا بعد الآن. لا نخاف إلا ما نجهله، بيد أن ضحكة باتريك أنارت ملجأ الظلمات. لماذا نخترع الغرام، نُبَرّج الوحدة، حان الوقت لمواجهة الريح، للتعرض للطوفان، تستطيع القيام بذلك لأن لا شيء يمكن أن يحدث لها، لقد تم الأمر، أصبح خلفها، ولم تمت من جراء ذلك. لم تعامل بشكل جيد، لم تحب بشكل جيد، ومع ذلك لا زالت على قيد الحياة. واثقة بنفسها، بقوة حياتها، بهذه الهبة القاسية التي تلقتها من اله متعجرف سماها ملاك القسوة. والآن ستخرج من هذه الغرفة لتجتاز ليل البنادق، الليلة الطويلة التي تسبق الفرج.

III

ارتدت ثيابها، جسدها مخدر، غير مستقيم، تحرقها عيناها، رأسها ثقيل، ومع ذلك كانت تشعر بأنها جديدة بالكامل، تعرف نفسها، للمرة الأولى، كل شيء يبدو لها بسيطا. لم تعد فتاة صغيرة، مسافرة تائهة، لم تعد فقيرة قديمة، عشيقة مخانة، كاتبة لا تشعر بالرحة، كانت امرأة تثق بنفسها، مدهوشة قليلا بالبساطة التي تمكنت من خلالها أن تقرر فجأة الحياة التي تنتمي إليها.

ترنحت قليلا وهي ترتدي ثيابها، كان جسدها مشدودا إلى النوم، أما روحها فممتدة إلى الخارج، إلى الخارج حيث الليل، إلى ما تراءى لها أنه أقل عتمة، كانت الساعة التي تمتزج فيها بالنهار، لونان يطيران معا، وكانت هيلين شبيهة برقصة فالس بطيئة، جسدها متعب، روحها مستنفرة، لكنها تعرف الآن أنه يمكنها أن تتغلب على نعاسها بإرادتها وحدها.

أزاحت الستارة المغبرة قليلا، في الخارج، أنوار الممر الشاحبة فقدت قوتها، وبدأنا نرى طرف الطريق، مدخل الغابة مثل بلد نائم خلف حدود المدينة الأخيرة.

وضعت معطفها، قفازيها، بالكاد نظرت إلى حقيبتها، هاتفها مطفأ، ومع ذلك كانت تبتسم، كم شعرت بالعزاء بأن تترك كل شي هنا، في هذه الغرفة، أثارها ذلك. أمر بسيط في أن تترك أوراقها، مفاتيحها، أرقامها، محفظة الماكياج، فرشاة الشعر، من السهل أن تقرر بأن ليس لديها أي ثقل غير ثقل ستارة الدوش الزرقاء، الرخام المزور في الزاوية والخزانة الفارغة.

مررت يدها في شعرها، على وجهها، على عنقها، "صباح الخير يا عزيزتي"، قالت، ابتسمت لنفسها، بحنان، بمتعة، "هل أنت على ما يرام يا صغيرتي! تعالي، سنذهب!".

رفعت ياقة معطفها، على طريقة العسكريين والبورجوازيين الكبار، استشاط قلبها حين وضعت يدها على مقبض الباب. الخروج. "الخروج من دون عودة". إنه بيت إحدى أغاني المنوعات، احساس بحفلة مساء السبت، حلم فتاة طائشة ومع ذلك ستفعل ذلك. إنه أمر ممكن إذا. الخروج من دون عودة.

فتحت الباب، وحين وصلت إلى العتبة، اختفت ابتسامتها، غطّت أيضا يدها بقفازها، في الرواق كانت الأبواب مقفلة، مصطفّة، الواحدة قرب الأخرى، تفرض عليها الصمت. على الأبواب تتأرجح بحزن أوراق "الرجاء عدم الازعاج". تركتها خلفها. ازعاج. لا تزعجني. هذا ما تريده. هذا ما تستطيعه. خلف الضحكة نحيب مكتوم. شعور بعدم الصبر. كانت واقفة في هذا الرواق الميت. سترحل من دون أن تعود وتنظر إلى الأبواب مثلما ننظر إلى صور قديمة، وقت مسمّر، لقد ابتعد ذلك، غارق في ليل أبدي، في نوم أهل الكهف... من سيأتي ليقبّلك؟ من سيوقظك بقبلة، أنت التي في وحدتك، في كوابيسك، في كآبتك؟

الأبواب الصامتة. لا تزعجني. لا تزعجني بشكل لا نهائي.

ولم تشعر بالشفقة. أحست بقلبها جاف لكي تذهب من دون أي شعور بالحنان. من دون أدنى ندم. رفعت يدها لتحييها وهي تدير لها ظهرها، توجهت إلى السلالم التي تؤدي إلى قاعة الدخول.

لا تعرف من اطلق النار. لا تعرف من أين اطلقت النار، بيد أن الطلقة كانت بمثابة نداء، إيعاز الهي لا تستطيع التخلص منه، وانفتحت أبواب القاعة لتدعها تمر، لتمر من الشك إلى اليقين، من الانزعاج إلى الجرأة.

فتحت الأبواب لتهب إليها الليل، لفح الهواء وجهها، شع جسدها بحرارة جديدة، خفق دمها بقوة، لهيب، يتنام جسدها مع روحها، كانت امرأة متناغمة، مدهوشة قليلا من نفسها، تجر نفسها، لم تفعل هذا من قبل، لم تجرؤ أبدا، لماذا لم يعلموها بأن الليل يهدئ الأرواح الشريرة، يدفع المزعجين إلى النوم ويخرج الملكات؟ "أنا ملكة، نعم، نعم يا صغيرتي العزيزة، ملكة متوّجة". ولِمَ لا؟ استطيع أن أقرر ما أريده. أنا ما أريده. وإن لم أحب، من يقوم بذلك عني؟ لِمَ نترصد الحب في عيون الآخرين، في حين استطيع أن أهبه لنفسي هذه الليلة، بالتأكيد، بكرم؟ أحبك كثيرا يا هيلين يا صغيرتي. تتدبّرين أمرك جيدا. أظن ذلك. أنظري إلى الليل كم هو جميل، وإلى النجوم التي تجتاز الزمن والفضاء، التي تنساب من دون أن تنطفئ. السماء والأرض معا. اختفت النيازك. الدروب الغرقى. المزيج الرائع للأشكال والهواء. أي جمال. سيحدث الأمر غدا من جديد. سرعان ما سيعود بوح النهار الذي انقضى، الغموض الظمئ. وأنت، يا هيلين يا صغيرتي، يا مدعوة السر الكبيرأ أقول لك لتذهبي!

سارت قليلا في الممر المليء بالأضواء الشاحبة، آخر الأنوار الخافتة، نقاط الاستدلال الأخيرة قبل الغابة.

كان ذلك موعدها الأول.

تقدمت ويداها في جيب معطفها. ببطء، كأنها نائمة تقريبا، بهدوء، شدتها الغابة مثلما تشدنا فجأة شياطين الطفولة، في هذه الرغبة المبهمة لايجادها من جديد، للشعور بالكآبة الأليفة، بالخوف الداخلي، كي نحملها في ذواتنا، لنهدهدها على قلبنا بمتعة. القرف على طرف الشفتين، المذاق المرير للفهم الحميم، المعروف حقا.

اختفى الفندق خلفها، غرفتها المضاءة، نور السقف الفج، وهيلين الأخرى خلف الستارة المتّسخة. هذه المرأة المشلولة التي تراقبها بحذر. أشجار الغابة التي اختفت في الضباب، بدأت أشكالها تتحدد، بدأت تفرض نفسها بوضوح. لا تعرف اسماء الأشجار، إنها موجودة منذ قرون. منذ الأجداد، منذ القدماء، منذ مجاعاتهم وحروبهم. كانوا هنا قبل أن يأتي والدها إلى العالم ليرمي فيه أطفاله المتعددين وقبل أن يبني البيوت. كانوا هنا، موضوعين على حافة الزمن، فاجتياز الغابة يعني اجتياز الأزمنة كلها، البرهان على كل العصور.

وحين أصبح الفندق كتلة بدون شكل مشطوبة باشارة حمراء مبهمة قليلا، حين أصبحت غرفتها بياضا هشّا، دخلت الغابة.

فرقع الحصى تحت خطواتها، تراءى لها وكأنها تقصف المعادن، تزعج الأوراق الصفراء العالقة بين الأرض الرطبة والجليد اللامرئي. الأغصان، الحصى، معالم هائلة لعالم سري تسحقه تحت أقدامها.

شعرت بألم في بطنها، هذا الألم الذي نحسّه في البطن قبل الحب، في الانتظار والفهم، هذا الألم لأن يدا تقبض لك على أحشائك، تتكوّر في قلب داخلك كي تحذّرك من الالتزام القادم لكينونتك بأكملها. شعرت بألم في بطنها مثل محارب قبل المعركة، الذي يخشى الموت أقل مما يخشى غياب المعركة. لم تعد تحدّث نفسها، لم تعد تشجّع نفسها، لقد ناداها هذا العالم الجديد، هذا العالم السلفي الجديد بالنسبة إليها. سبق لها أن عاشت أرقا، ان اجتازت غابات، لكنها لم تجمع الأمرين معا من قبل: اجتياز غابة في ليلة أرق. نصبت العديد من الحواجز في حياتها، قررت العديد من الأشياء المستحيلة، بسبب فقدان المخيلة، بسبب الرغبة في العيش مع الآخرين مثل الآخرين. رغبت في أن تكون جزءا من وقتهم وعالمهم، إلا أنّها الآن، وفي أولى أنوار الفجر الخجولة، تشعر بالكذبة، بالاغماء، وكلما تقدمت في الغابة كلما ارتفع النهار، كما لو أنها حملته معها إلى هذه الأماكن، لتخفّ الأنوار القديمة.

نزعت قفازيها لتتقدم بذراعين مفتوحتين، تلمس اصابعها الأشجار الذراعان متابعدتان، اليدان عاريتان، وثمة عصفور ينشّط كآبته الحادة، الأليمة، يجعلك الأوراق، آخر أوراق هذه الأشجار المكتشفة.

بإمكانها أن تمسد أشجار الليل.

بإمكانها أن تكون وحيدة في الدغل.

بإمكانها أن تسير من دون هدف.

بإمكانها أن تتوقف عن النوم.

أن لا تخاف.

أن تتوقف عن الانتظار. الاعتراف. الاحترام. الحب.

أرجعت رأسها إلى الوراء. تأرجحت الغابة. نظرت إلى السماء أمامها، وضعت راحتيها على شجرتين مريضتين، واجهت السماء مثلما يواجه طفل البحر، البحر البعيد المليء بالأمواج الحانقة، عادت لتشعر بهذا الخوف الصغير اللذيذ، الرغبة في أن يبتلعها لينقذها والدها، بين ذراعي والدها مثل اميرة أغمي عليها.

ابتسمت لهذه السماء التي شحبت بخجل في الضباب، وكأنه ليل أكثر من كونه نهارا، كأنه كبرياء أكثر من كونه موهبة، هذه السماء التي يصلي من أجلها الأرضيون، الجرحى المنسيون في الحقول والغابات، الذين يبحثون في اتساعها عن جواب حين تصبح حياتهم فجأة على عتبة اللانهاية. ابتسمت لسماء الأسئلة كلها، وللمرة الثانية، الصرخة المنزوعة، غير الانسانية، السريعة: الانفجار.

ارتجف قلب هيلين سعلت قليلا. نظرت إلى أعلى الشجر الثابت، حاولت أن تتذكر، كي تحدد الموقع، كي تعرف كيف انطلق العيار الناري، بيد أنه تراءى لها بأنه انطلق من قلبها، انتزع منه، وفجأة واجهت الحيوان: دام الأمر لثانية، ربما أقل، لكن هذه اللحظة بدت كبيرة، طويلة، محمّلة، لحظة تثقل على الغزال الذي أمامها، أطنان من التوقف في فخ هذه الغابة الكبير، وفي عينيها الخوف، الرعب الدائري. فهمت هيلين بأن الصيد قد بدأ.

رأت عين الغزال كما لو أنها كانت في صندوق

المرسيدس، العينان في الصندوق، القلب في العلبة، أدلة البغض، خطايا الحب، عين الغزال قريبة من الفوط والأحذية، العين التي تنظر إلى هيلين حيث غريزتها تشير إلى أنها كائن بشري، إلى أنها من نوعية القناصين، آكلي اللحوم، العين الثابتة على الجسد المرتجف، القوائم الرفيعة جدا الحاملة جسدا ثقيلا جدا، العين التي تطاردها البنادق المحشوة،، وهيلين هي عدوتها في هذه الغابة، عدوة السمان، عدوة السماء، التي تخشاها البهائم. تمددت الغزالة بقسوة مخيفة، ظنت هيلين بأنها سقطت، بأنها علقت بين الأشجار، بأنها انتزعت أغصانها. كانت تسمعها بدون أن تراها، القفزة العديمة النفع: إن لم يكن اليوم فسيحدث الأمر غدا، غدا ستسأل عينها السماء لكن السماء ستسكت بينما تتمّ تهنئة الكلاب ويفتح الصندوق.

اشارت إليها الغزالة بدون أن تريد ذلك إلى مصدر الطلق الناري، يكفي أن تتوجّه إلى المكان الذي انبثق منه الحيوان، إلى يمين الغابة، بالقرب من شجر التوت العاري، قرب الأحجار المتشابكة والأوراق الممزقة من أحذية الصيادين.

سارت هيلين قليلا داخل ما اعتقدته غابة كبيرة إلا أنه لم يكن سوى دغل صغير. اكتشفته بسرعة. لانهاية هذه الغابة لم تكن سوى وهم، لقد تم تقصيرها، تم قص الأشجار لإيجاد مساحة، لاشعال النيران، لصناعة الأثاث والكتب ومواقف السيارات.

خارج هذه الغابة الصغيرة كان النهار أوضح، الضباب المبدّد، تمرّ بالقرب من الرجال ومن غرورهم، سرعان ما ترى هيلين سياراتهم المركونة على الأرض البراح. لم يروها. لم

يسمعوها. ولا حتى كلابهم. الطقس أدفأ مما هو عليه في الغابة، ومع ذلك كان الهواء لاذعا، متخلّيا عن حميمية الغابة، عن فضائها الملموم. نداءات بهائم الليل وأناشيد اؤلئك الذئن يعلنون قدوم النهار. تنام مهدّدة بالسيارات والمواقف المرتجلة.

فجأة سمعت هيلين صوت محرك سيارة. بعفوية، اختبأت خلف دغل. كان معطفها يلامس الأوراق. جسدها متيقّظ. إنها سيارة سوداء، ملطخة بالوحل، تتأرجح بين أقنان الدجاج، أضواؤها مشتعلة، توقفت قرب السيارات الأخرى. في تلك اللحظة، وكما لو أنها أعلنت ذلك، انطلقت طلقات أخرى. اقترب الرجال هذه المرة، علت صرخاتهم، علا نباح الكلاب المهتاجة... توقفت السيارة، بدون أن تطفئ محركها ولا مصابيحها، خرج منها رجل بسرعة، يتبعه كلب بروتوني يقفز حوله بكل حيويته المنتصبة. بقي الرجل للحظة ممانعا، نظر محاولاً أن يفهم، رافعا جسده قليلا، مشرئبّا بعنقه: في مكان أبعد قليلا، في عمق الحقل الأجرد والبدون ألوان، ثمة مجموعة من الصيادين والكلاب. ثمة كتلة على الأرض، شكل ثقيل وغامض لم تميزه هيلين جيدا، لكن حولها كان الجميع منهمكين، ينادون بعضهم بعنف ثقيل، إنها الصافرات، التحديات الممتلئة، التعجبات القذرة، الرعب الموزّع، وحدها البنادق سكتت. رغب الكلب البروتوني في الدوران، تردّد بين الركض والخضوع لسيده. كان الرجل عائدا إلى سيارته حين علت صرخة أحدّ وأقوى من كل الصرخات، في عمق الحقل. خنق الضباب صداها. تعاظمت كآبتها في الصباح العاري. اسرع الرجل إلى

الطريق المنكوشة، فرفع حذاؤه فوق الوحل، قفز الكلب ليركض أمامه. زوجان جُمعا بطريقة سيئة، رقصة سريعة غير متناغمة.

حين لحقا بالمجموعة، وقفت هيلين. ضجّت السيارة وهي تطلق الغاز من منفذها. الباب مفتوح، المصابيح البيضاء، كما لو أن ثمّة حضورا بشريا، تنفّسا شاذًا في هذا المكان ذي النباح.

تقدمت هيلين باتجاهها مثلما تقدمت في الغابة، بالبداهة ذاتها، بالهدوء عينه. إنها سيارة مجهولة، بدون صور، بدون تعاويذ، مقاعد من السكاي، شرشف أصفر للكلب، ميدالية القديس كريستوف معلقة بالمفاتيح التي بقيت في نقطة التماس. نظرت هيلين إلى الغابة الصامتة، والحقل الموحش وإلى مجموعة الصيادين في البعيد، وكأنهم جنود ضائعون، بدون قائد، بدون أوامر، مجتمعون حول هذا الشكل الذي على الأرض في ضوضاء بدون اتجاه. بخّت السيارة حرارتها مثل نفس مريض، وبالرغم من ذلك، بالرغم من هذه الحيادية النتنة بعض الشيء، جلست هيلين مكان السائق، أغلقت الباب، استدارت نصف استدارة وذهبت إلى حيث وصلت السيارة.

استقلت دروبا، شعابا، طرقات مليئة بالقطران، ضاعت قليلا، ترددت عند المفترقات، عند نقطة التقاء الأماكن الادارية والأماكن المعلنة. الفضاء واسع وعاري. كل الاتجاهات تقود الى مكان ما. كل شيء كان ممكنا، لكنها لم تكن ترغب إلا في شيء واحد. تريد الطريق الذي يقود إلى باريس. الذي يقود إلى باتريك. تريد أن تشعر بأنها حية أمام الكذبة.أن تبتسم للخيانة وأن تغادر عشيقها مثلما غادرت غرفتها. تريد أن ترحل من دون أن تعود إذ ما من أهمية أثر من مكان مجهول، من ليلة مضمحلة. لن يترك ذلك أثرا في حياتها أكبر من عشاء اجتماعي. لن يجرحها هذا الأمر، لقد انتهى. انتهى الذل، الوقت المجزأ، الليالي المسروقة من الحياة الزوجية اليومية، عطلة نهاية الأسبوع المنتزعة من الواجبات الزوجية، الأحاديث الهاتفية بصوت خفيض من غرفته المستقلة. الرسائل التي لاتحمل اسم المرسل، أعياد المولد، الأعياد التي تتم مناقشتها بمرارة، المستقبل الذي سيتوقف في اليوم التالي، الحياة المشطورة إلى نصفين، المشطورة في قلبها، القلب الدامع، لقد نتهى ذلك كله. تستطيع العيش بدون هذا الأمل المبهم، بدون لعبة الحب والصدفة هذه: الرهان على الراحة، وكسب الرهان، لكن الحظ سينقلب ذات يوم، ستفلت ضحكة مثل حقيقة خفيّة وسيكون الدمار، الوداع للراحة، لخبث الزوجة التي تسمح بالعشيقة كي ترفض سريرها بشكل أفضل، التي تسمح بالخيانة كي يدفع لها بشك أكبر عند العودة، ليدفع

ثمن كل حركة حب إلى الأخرى، ثمن كل عودة فرحة إلى عندها، كل رحيل مستعجل صوبها، كل بصمة من بصماتها في حياتها الجديدة. ثمن أذواقها الجديدة، جنونها الفجائي، بورجوازية الزوجة السجينة رعبها، الخوف الأزرق من رؤية نهاية الحساب المشترك، التمثل الاجتماعي والشيخوخة المشتركة.

تريد هيلين أن تشاهد ذلك كله.

استقلت دروبا وشعابا وطرقات مليئة بالقطران، ومن ثم رأت هذه اللافتة، الأكبر من الأخريات، هذه الحروف الخمسة الرائعة: باريس. خمسة أحرف لتقول السيليكت وجزيرة سان لويس والأرسنال وكنيسة جان جيرفيه، خمسة أحرف لقول الشيء الأكثر رومانسية، الأكثر اضاءة، الأكثر انارة لدرجة اننا لا نستطيع ملاحقة النجوم، فقط أثلام هذه الطائرات، الطويلة، في السماء، كل هذه الطائرات المعلقة فوق أحرف خمسة مكتوبة بالنار: ب ا ر ي س. 170 كلم.

كلما سارت كلما انمحى الليل، انفتح الصباح على اقتراب السيارة، الكيلومترات المنهوبة، واحدا بعد الآخر فوق هذا الطريق القاحل الذي يخترق الحقول، هذا الطريق ذو الرتابة المقصوفة عبر محطات الوقود فقط ونصب الحالات الطارئة.

ضحكت هيلين حين فكرت بما يمكن أن يكون عليه عنوان جريدة R : "مدعوة الى معرض الكتاب، كاتبة تسرق سيارة صياد وتهرب"، ضحكة أكثر انتصابا من تعبها، لكنها لا تستطيع أن تستسلم أمام هذه الحقيقة: هذه السيارة الساخنة والمرنة، التي كانت تحت أقدامها وكأنها اشارة من القدر.

رغبت في أن تخفّف قليلا من ضغطها، لكن ما أن تخفض سلاحها حتى يجتاحها التعب مجددا. يهددها الانهاك بخطر، لذلك من المنطقي أن تتوقف كي تشرب قهوة، لكن ربما أذيعت مواصفات السيارة. يجب أن لا تتوقف وتنزل منها، عليها أن تكسب الكيلومترات الواحدة بعد الأخرى، أن تهزمها وأن تصل إلى عند باتريك للمرة الأولى، بولوني - بيلانكور، شارع النسر، المنزل المجهول، المدينة الممنوعة.

ومن دون أن تفكر، اتجهت صوب شريط الحالات الطارئة، سارت لعدة دقائق كي تخفف السرعة، 150، 100، 80، 60، ثم أطفأت المحرك.

الصمت الفجائي بدا أشبه بدبيب، ظنت انها تحت الماء، قلبت رأسها على المسند وأغلقت عينيها، كان قلبها يهرب من

جسدها، متعبة مثل شارة الحزن الأخيرة، السباق الأخير لجسدها المتعب.

بولوني - بيلانكور. شارع النسر. ستجرؤ على الذهاب. كل الأكاذيب، الخدع، التطمينات كانت تجعلها على غير ما يرام. كان يقول بأنها كانت ساخطة وخبيثة، قال بأنها كانت جميلة، من قبل، أما الآن.... هي نفسها تشعر بذلك، تشعر بأنها عجوز، متعبة من جراء الأمومة، مستهلكة من فقدان الحب، وكان يخونها بشكل مفتوح، يجرؤ عل أن يقول للجميع وأمامها بأن هيلين كانت خطيبته. إنه شخص قاسي بدوره، وقح ومرح معها كما هو مع هيلين. يبدو جبانا، لا يعير أي قيمة للاثنتين، يتملقهما، انه السمسار ذاته، التافه... الساخر والتافه... الخيانة العادية. الابتذال العادي.

شعرت هيلين بالبرد. الشوفاج والمحرك مطفآن، السيارة أشبة بآلة ثلج. عليها أن تسير كي تشعر بالدفء. نظرت إلى الحقول على أطراف الطريق، هذه الأماكن التي ستختفي، التي ستنساها، كانت وجودها الذي يجعلها تولد وتموت، هذه الأماكن كانت كتابتها التي تُوّلد حبها وتقتل الأساطير.

رفعت كتفيها، طقطقت عنقها، نفخت في يديها، كانت تشعر بالبرد إلا أن هذا الوقت المستقطع كان خيرا، شعرت بأن جسدها يعود إلى الحياة، أقل تخدّرا، أقل وزنا ونظرت باهتمام الى السيارة، كانت بدون راديو، بدون ألعاب. سيارة بسيطة وعمليّة مثل سيارات بلدان اوروبا الشرقية، سيارة نظيفة إلى حد الهوس، ما من ورقة، ما من شيء منسي، ما من خريطة طريق

مطوية بشكل سيء، بطاقة تائهة، لا شيء من هذا، حتى شرشف الكلب ممدود بعناية، كانت سيارة محافظ عليها، لا يسمح المرء لنفسه بتبديلها، ومع ذلك، حين فتحت علبة القفازات وجدت هاتفا نقالا ومحفظة. كان الهاتف كبيرا مثل التووكي - الووكي، لا يرسل الصياد منه رسائل غرامية كثيرة، أما المحفظة فناعمة وشبه مجهولة: فقط بطاقة هوية باسم "روبير بيرتان"، وورقة نقدية من فئة العشرين يورو موضوعة بعناية على طول المحفظة.

امسكت بالهاتف، كان باردا وتفوح منه رائحة الدخان، رائحة التبغ البارد المنفرة، شعرت بالاشمئزاز كما لو أن روبير بيتان نفخ النيكوتين في وجهها، من بين أسنانه الصفراء التي لا تزال بحالة جيدة كي يمضغ طريدته.

رغبت في أن تناديه بوالدي. في هذه الأرض القفراء، أن تناديه بوالدي. ان تتكلم إليه من لا مكان، من دون نقاط استدلال،ربما يستطيع أن يقول لها إنه يستطيع مكالمتها الآن، أن يقتربا من بعضهما، هو الذي لا يفهم لا حياة هيلين ولا كتاباتها، الذي لا يفهم لا العزوبية ولا غياب الأمومة، هي الحزينة التي تمر إلى جانب العديد من السعادة، لكانت حياتها أسهل لو رغبت في ذلك، لو فعلت أشياء أخرى غير البناء فوق الرمل، غير اختراع الروايات البوليسية والعيش بمفردها، يتراءى له بأنه المسؤول عن الخطأ: ما الذي لم يقدمه، ما الذي لم ينقله، ما الذي لم يكنه؟ لقد عمل من دون أن يحصي لا الساعات ولا ألمه، لقد أحب زوجته، أطفاله، إنه الآن كبطريرك فخور من سلالته، هو الذي ينتظر الموت بطمأنينته المضطربة

قليلا لأن الله بالنسبة إليه بداهة مطلقة.

كان الوقت مبكرا كي تتصل بوالدها، باكرا جدا لتخبره كم أنها نادمة. لم تنجح في ذلك على الرغم من كل المجهود الذي بذلته، بالرغم من مطار أورلي، بالرغم من الحقيبة الحمراء، بالرغم من محاولة ردم الفقر قليلا، من تخفيف الوساوس، لقد دفعت بها قليلا إلى الأمام. تذكر ذلك.

المساعِدة الاجتماعية كانت جاءت في ذلك الصباح، إلى المنزل الصغير جدا. كان المنزل يلمع مثل قرش جديد، يلمع أكثر من العادة وثمة مخافة من ازعاج الأشياء، كما لو أن في الأمر أمرا مهووسا. كأنها لم تعد تنتمي الينا مطلقا. بدا المنزل قاسيا، لم تكن والدتها تتحدث، لم يسمح لها قلقها إلا بالحركات الآلية العائدة لترتيب المنزل. من وقت إلى آخر كانت تمرّر يدها بعجلة في شعرها، تكوي مريولها الذي احتفظت به مثل خادمة قد يقرع لها الجرس في اي لحظة. وعندما جلست العاملة الاجتماعية قبالتها في صالة الطعام، إلى الطرف الآخر من الطاولة الطويلة المصنوعة من خشب الصنوبر، تركت يديها على ركبتيها. موقف لم يسبق لها أن رأته. ثمة قسوة تعطي لملامحها شكلا جافا وهدوءا مخالفا لا يناسبها.

لم تفهم هيلين الحديث ولا كلماته. لم تفهم لِمَ أمها لم تعد تشبه نفسها، ما الذي تحاول أن تفعله في بقائها مسمّرة في مكانها ومستقيمة، ما الذي تحاول قوله من خلال هذا الصوت المترنّح. لكنها بكت بعد ذلك. بعد رحيل المساعدة الاجتماعية. لم ترغب في تعزيتها، فقط تريد البكاء بسلام. وبقي المنزل

صامتا، لم يعد الأطفال يلعبون، الأشياء لم تتحرك، لا شيء كان كعادته ولا شيء سيكون كما كان عليه من قبل.

قطعت المساعدة الاجتماعية المؤونة. قطعت المساعدات العائلية. لقد لاحظت أن ثمة دخلا ما، كل شهر، يضاف إلى حساب العائلة المصرفي: إنه صك النسيبة، الصورة التي تصاحبها عبارة BBAB. الرعب. الكارثة. الفقر يملأ الدرجات التي تصعد كلها في اتجاه واحد، اتجاه النزول الاجتماعي والذل، وكان يتوجب أن ينزلوا زيادة، في الحرمان، في الأرق، في الخوف من الغد، النزول إلى فن تدبير الحسابات، الكرامة العنيدة. وقد تعلمت هيلين كلمة أخرى من مصطلحات الخوف: المساعدات العائلية. مساعدات. ايجار.

كم تعطي إلى هذه المرأة؟

"كولوكوكو كم من المال في حذائي؟"

الكثير. لدي الكثير من المال في حذائي، الآن، يا أبي. الآن حين لم تعد بحاجة إلى ذلك؟

أعادت الهاتف النقال إلى صندوق القفازات. مع المحفظة. لقد سرقتهما من دون أن ترغب في ذلك. سارقة أزواج. سارقة سيارات. محافظ. هواتف محمولة. سارقة قصص.

أعادت تشغيل محرك السيارة.

ستكمل طريقها.

تراءت لها الطريق طويلة قبل أن تعود الحرارة إلى السيارة. شخرت قليلا في هذا البرد لتظهر على وجهها بعض التعابير، كأن تكبّر فمها وتشدّ وجنتيها كي تستيقظ وتتنشّط وتغلق عينيها بقوة وتحملق، وتتحرّك قليلا على مقعدها، إذ أن ترددها في الاتصال بوالدها جعلها تصاب بالاحباط، لذلك قررت أن تغيّر أفكارها بغنائها أغاني تافهة. تعرف الكثير منها، أغاني الفرص المدرسية، المخيمات الصيفية، رقصات الشاطئ، أناشيد وطنية وحتى الأناشيد الدينية، تعلمت ذلك كله في طفولتها، خلال تنقلاتها الطويلة في السيارة، خلال سهرات النار، النزهات في الجبال، تستطيع أن تغني الأغاني الثورية كما اغاني إديث بياف، تستطيع أن تغني "منتصف الليل المسيحي" وبلادي النورماندي". 170 كيلومتر مسافة صغيرة لكل ما حصل، وبدأت بالضحك مرة جديدة، ما الذي يمكن أن تفعله بكل هذه الأغاني وهي التي لم تهدهد يوما لطفل كي ينام.

ماذا ستفعل بكل كتاباتها وهي التي لا تملك حقوقها.

ذات يوم ستصبح أملاكا عامة، ذات يوم بعيد حين يموت والدها وحين تنتهي مع الحزن والعار، سينتهي الأمر بها بأن تتلف من دون أن يجد أحد شيئا ليقوله، حتى روايتها مع باتريك ستفرم كما الأشياء الأخرى.

وكل هذه الأحزان.

وكل هذا الألم.

وكل هذه الهموم.

تبخّر كلّ شيء مثل ضباب الصباح.

أنزلت نافذة السيارة، الهواء الثلجي أطار شعرها، صدم جفنيها، أخرجت رأسها خارج السيارة، بما أن ليس هناك كيلومترات كافية لكل هذه الأغاني، ما من وقت كاف لتقول احباطها، قررت أن تصرخ في اللامكان وضد لا أحد، مثل ثائرة، مثل مجنونة حانقة، أن تصرخ على هذه الطريق القاحلة، في هذه الحقول التالفة، أن تصرخ بشغفها الحقير، بمالها عديم النفع، ببطنها الجاف، بكل فقدانها وحروف الـ .S وصرخت مطوّلا، صرخة شفافة، غير مسموعة، علقت بين قرقعة السيارة والريح، صرخة صامتة هزمتها العاصفة، غضب صامت، من ثم أقفلت النافذة

كانت تلهث مثل غريقة سحبت خارج المياه، مندهشة، مقطوعة الأنفاس، جافة العينين والفم. "اهدأي يا عزيزتي، يا صغيرتي العزيزة. اهدأي". لا تعرف ما عليها القيام به، كيف تواجه تعبها، الأفكار التي تجتازها، كانت وحدها على المحيط منذ أيام وأيام، أحالتها الوحدة مجنونة، لم تعد تعرف إن كان عليها الغناء أم الصراخ أم الكلام أم التحرك أم أن تركز فقط على الكيلومترات التي تلتهمها مصابيح السيارة، أم أن تطيع هذه البهيمة القوية التي أصبحت عليها السيارة.صرخت مثلما نهيج قرنا، مثلما نخيف قطاع الطرق، إلا أن الطريق فارغة، لا شيء يحدث عليها، باتريك ووالدها ينامان، لا أحد يقلق عليها، هي التي كانت تصرخ بسرعة 200 كيلومتر في الساعة، هي التي

كانت في خطر ويمكن أن تواجه الموت، هنا، في هذه اللحظة بالذات، في أن تتحطم بين ذراعيه، لكن عندها من سيعرف الليل الذي اجتازته؟ من سيعرف الوحدة التي تجتاحك حين يتركك الخوف؟

- هل تذكرين يا عزيزتي، يا عزيزتي الصغيرة، حين كان يتبرع بدمه؟ بقيت جالسة إلى جانبه وأنت تنظرين إلى الإبرة العملاقة المزروعة في شريانه الضخم، النازف، الملطخ باللون الأصفر، بينما كان يمزح مع الممرضات، دائما ثمة كلمة رقيقة، ازعاج، تعرفهن جيدا إذ غالبا ما يأتي إلى هنا، أحيانا مرات عدة، لم يكن الأمر قانونيا لكن عندما تدعو الحاجة الملحة كانوا ينادونه، كان والدك يستجيب دائما إذ كان "واهبا عالميا"، كم كان فخورا من ذلك: "أنا واهب عالمي، فئة دمي 0 سلبي وأنت كذلك أيضا يا هيلين، كل أطفالي هم كذلك كل أطفالي يستطيعون وهب الدم إلى الناس كلهم، لكن حذار! قلة هم الذين يمكن أن يتبرعوا من أجلك! وحين تتنزهين في شوارع بيربينيان انظري إلى العابرين، إلى الجالسين على الشرفات، في الباصات واؤلئك الذين على دراجاتهم الهوائية، أنت تعرفين بأن والدك بشرايينه الضخمة يمكن أن ينقذهم كلهم. وعلى درّاءة السيارة ذات الأطفال الكثر، وضع لاصقا، صليبا أحمر: "واهب دم"، حاز ميدالية، كان يملك بطاقته على أنه واهب دم، هذا المعماري العالمي والمتعدد، لكن أنت، يا عزيزتي، فبطنك فارغ، وشرايينك رفيعة لا تظهر مثل شريط رطب، لست جديرة بالقيام بذلك، آه كلا! لقد سالت دماء والدك في أروقة المستشفيات ودور الحضانة، في سيارات الاسعاف، فوق الطرقات، ولا تحبين أن يسمى دمه 0 سلبي. سلبي. صفر

وسلبي، كعلامة سيئة، إذ في النهاية... هناك عقاب في آخر الأمر. في بعض البلدان يدفعون ثمن الدم، لكن والدك ما كان يقوم بذلك أبدا، هو فقير هذا صحيح، لكنه ليس بائعا أبدا.

وأصبحت هيلين تسير الآن بشكل أكثر وداعة، بخاصة أن أفكارها كانت تتجه صوب صور قديمة، لم تعد تصارع الكيلومترات، كانت تجتازها فقط. لم تعد تناضل ضد التعب، استرخت قليلا، لا تزال متيقظة بعد، وبشكل ارادي افلتت الزمام لتأخذ الطبيعة شكلا آخر، كان النهار واضحا تقريبا فوق الحقول الكثيرة الأودية، المدن أصبحت أقرب، وهي لم تعد وحيدة على الطريق، من وقت إلى آخر تلتقي بسيارة، بشاحنة مغطاة، بباص سواح نائمين.

كانت تأخذ الاتجاه المعاكس للطريق الذي كان على باتريك أن يأخذه فيما لو بدلا من أن يضحك، جاء ليكسر خطم اسحق، في عز الليل، في قلب معرض الكتاب: "إنها زوجتي! زوجتي، هل تسمع، أيها السافل؟" لكن اسحق لم يفهم شيئا، كيف أن باتريك في السرير مع امرأة أخرى ربما، مع امرأتين أخرتين، مع امرأة ورجل، مع كل من يريد، سواها، هي التي تعرض عليها اقتراحات ومن ثم تنسى، لأن الحياة أرض صيد شاسعة، مطعم خدمة ذاتية في الهواء الطلق، آخذك، اتركك، أرغب في تجربة شيء آخر. هيه! انت هناك! نعم أنت! ولِمَ لا؟ لِمَ ليس هو، لِمَ ليست هي، واهب سائل منوي عالمي، لكن من عند باتريك لم تعد تراهم، الأشكال الهاربة. ما من أحد يملك سواد عيني باتريك اللتين كانتا تخترقانها لتقرأها بشكل كامل، لتعرف ماضيها من دون أن تتحدث عنه، تفهم تعبها، آمالها من دون أن تتكلم

عنها. وحده باتريك يعرف من دون شرح، من دون تقديم، يعرف كيف يحافظ عليها بطريقته، كيف يبتسم لها، كيف تلتجئ إليه، كيف تكلّمه ووجهها إلى الوراء قليلا، كيف هي وما هي بحاجة إليه. كان يقول: "إنها المرة الأولى التي أتآلف فيها مع قطة برية"، أمر سخيف، سخيف هذا النوع من الجمل حين لا نكون عاشقين، لكن حين نحب، الجمل البسيطة، الاستعارات السهلة هي الأكثر حقيقية، الآسرة أيضا أكثر من أغنية حب، حين نحب ينقلب الذكاء، تتباعد المراكب، يختفي الفائض بسهولة مدهشة وكم من الأشياء التي نتعلق بها تصبح عديمة النفع. نرغب في أن نكون محبوبين، معترف بنا مفهومين من قبل حمقى متعددين، من أصدقاء مزيفين، لكن لا شيء ضروريا سوى العشيق، الوقت الذي نمضيه معه، الوقت الذي لا نمضيه معه، الذكريات، الاستعداد، الوقت المخفف الذي يجتاحه العشيق، لكن. . . .

– لكن يا صغيرتي العزيزة أين هو هذا الرجل ماذا نفعل بحب يفرض نفسه في المكان الخاطئ، الذي يخطئ الشخص؟ ما الذي ستفعلينه بهذا الشغف، إنه ثقيل جدا وكبير جدا، ليس بإمكانه أن يرخي ظلاله، هنا، الآن، في ليلة، في غرفة، على الطريق، الأمر أشبه بأن يضرب المرء رأسه على الزجاج، كأن يسير إلى الخلف، كأن ينام وعيناه مفتوحتان، كأن تكوني ميتة، ميتة وحية، الأمر غير موجود، كيف يفعل الآخرون، كل الذين لا يموتون من الحب؟ كيف يعيشون، كيف يجدون في الصباح طعم الأشياء والكائنات؟ يعيدون إحياء المظاهر ويشتركون في الضجيج الكبير، حياة مقادة بالمنطق واللهو. . . لا أريد أن أكون

لاهية. أريد أن أكون مجتاحة. لا أريد أن أكون محترمة. أريد أن يبتعدوا عني، أن يهربوا من العدوة، أريد أن أكون ملكة المزعوجين، ملكة الذين لا معنى لهم، إذ هذا هو الحب، ما يقولونه: مرض الحب، الحب المجنون، الحب الذي يفترس، الحب الذي يشعرنا بالهوس. أريد أن أختار بئس مصيري، وبئس كصيري هو أن أحب. أجل. أريده. أريد أن أنزع الستائر وحجاب المتزوجات. أريد أن أجتاز الغابات وأن أسير على المياه. أريد أن أرى ضحكة الرجل وأن أجعله يرقص مثل ثعبان. استطيع القيام بكل شيء، تقرير كل شيء، أن اتعلم كل شيء عني. أستطيع أن اعترف بنفسي حرة، أن أكتشف أني حرة، بدون خوف، أستطيع أن افاجئ نفسي وأن أحب نفسي وأن أظهر نفسي عاشقة كونيّة، وتبّا لاؤلئك الذين اشير اليهم إن كانوا لا يستحقون ذلك، استطيع اضاءة رجل ميت، تغيير القباحة، رفع الشحاذين، انتخاب الأمير غير المناسب. ما يهمّ هو أن تطير الحياة بسرعة ممنوعة، ما يهم هو أن ينقطع نفسنا، القلب القلاب، الأساس هو خطر الحب الكبير، لا حقارة العشق.

كم كانت محقة في اطاعة الحروف الخمس النارية، إذ كان عليها أن تعود الى باريس وستجتاز أبواب المدينة بفخر تلك التي تأتي بأخطر الرسائل.

لم تر مرور الكيلومترات التالية. كانت السيارة تسير وحدها، من دون أن تقودها حقا، تنساب مثل حصان يعود الى حظيرته... قالت ذلك لباتريك... تذكر ذلك. كانت قد لحقت به في إحدى المدن الجبلية حيث كان يؤدي دورا في مسرحية لستريندبرغ. جاء لانتظارها على المحطة وعلى الطريق الذي يؤدي الى الفندق كانت تقفز وهي تتحدث، وهي تضحك. كان وجهها مليئا بالنور والفرح، وهو، كان سعيدا ومتفاجئا من هذه الرقصة حوله، على الرصيف، سألها لماذا تقفز هذا وهي في طريقها الى الفندق "أشعر بأني مهر يعود الى حظيرته، قالت له، أنا سعيدة جدا، لا استطيع منع نفسي عن الركض! تخيّل يا حبي، ليس لدينا شيئا آخر نفعله الآن سوى الحب، الحب طيلة اليوم، لغاية العرض هذه الليلة!" وكان النهار شيئا رائعا، انتقاما من الأيام السابقة الهادئة والحيادية، وقت لعرسهما حيث اكتشفا بعضهما البعض، وهما يتعانقان، في النظرات، في الرغبة في الآخر، كما لو أنهما لم يعرفا بعضهما من قبل. كان صحيحا، كان جيدا، كان واقعيا، كان حقيقيا ومتناغما... لكن ألم يكن الأمر كذلك دائما؟... الحب الحقيقي؟ الحب الكبير؟ لذلك، لمن نحتفظ به؟ من يملك الحق في ذلك؟ حق أن نقول "لقد أحببت" من دون أن نقع في الخطأ؟ الذعر، الفرح، الرغبة في الصراخ وفي تفجير السعادة في هذه المدينة أسفل الجبل... ما الأمر؟ أي شيء آخر؟ هذا التسطيح، هذا الاهمال، هذا الاحساس بأن

نكون داخل قلبنا في النهاية... ما يسمى ذلك؟ ما هو هذا الفهرس، هذه الكلمات لكي نقول عن الذي لا يمكن الوصول اليه، عن الكمال اللامرئي؟ أليس علينا أن نخترع برقية نمنع فيها النطق بكلمة حب، لأن الإيمان بالحب لا معنى له مثل الايمان بالسماء؟ لكن من ستصيبه النعمة؟ باسم أي خاصية؟

ومهما كان عليه الاسم الذي نعطيه أو الذي نرفضه... كيف نشفى من ذلك؟

تسير هيلين على هذه الطريق لأنها كانت طريقها. اتبعت اشارات السير، رضخت للزمن الذي يقودها الى الهدف، اراديا، مثل مهر جائع، ومن وقت الى آخر، كانت الصور تنبثق، لم تكن تعرف كيف تفكّ معناها. هي وباتريك قصة واحدة، واقعان، وما من يقين، وما من حقيقة، أبدا. حتى ما من ذكرى مشتركة. لا شيء.

كانت تسير. توقّفت عند اشارات المرور، عند اشارات التوقف، عند اشارات السير الحمراء، عند الحواجز المتعاقبة، القريبة، بينما كانت سيارة روبير بيرتان المليئة بالوحل تدخل باريس.

وقد وصلت الآن.

يعيش هنا.

تعرف هذا الشارع.

كان مقيما في هذا الشارع.

عند هذا الرقم وفي هذه المدينة.

وصلت أمام شبابيكه المغلقة.

ستخرجه.

ستحاول أن تخرجه.

لينزل. ليشرح الأمر. ليضحك مجددا، وحده. هو الذي، قبل ذلك، لم يكن يضحك إلا معها. كم من مرة ضحكا كالمجانين. ضحكتان مشتركتان، لأنهما يحبان التفوّه بالحماقات. تقليد الأصوات الغريبة. أن يسخرا من بعضهما البعض كما لا يستطيع القيام بذلك إلا الذين يعرفون بعضهما جيدا. هم وحدهما يملكان الشيفرة السرية العائدة لضحكهما، وحتى أنه في بعض الأحيان يضحكان بصمت. ينظران الى أحدهم وللتو يعرفان لماذا هو غير لائق، مضحك بالنسبة اليهما فقط.يديران رأسيهما كي لا تلتقي نظرتهما بنظرة الآخر ليضحكا عاليا ـ معا وبصمت، ينفجران.

كانا فرحين، معا. مسروران من كل شيء لأن لا شيء له أهمية سواهما. وليس للحياة حولهما سوى هدف تابع، لذلك لا يمكن لهما أن يكونا تعيسين، أبدا. يضحكان لأنهما معا مثلما نضحك عند استقبال خبر سار، إذ يتقاسمان هذه لمفاجأة

الرائعة: يحبان بعضهما. يرغبان في ذلك. يصدّقان ذلك.

والآن، الرجل العاري خلف نوافذه المقفلة سيرتدي ثيابه ليلحق بها. لن يندهشا بكونهما معا في الصباح الباكر. سيشعران بالانزعاج. لكنها تريد أن يرتدي ثيابه وأن يأتي. بتعبه، بهروبه، باحتفاله. برعبه حين يعرف أنها في المدينة الممنوعة. الأراضي الشرعية. كانت هي اللاشرعية. كانت للجميع ولا لأحد، مثل العادة. الى اليمين قليلا، الى اليسار قليلا، كما دائما.

غادرت الشارع وتوجهت إلى الغابة القريبة، ركنت السيارة.

كانت هادئة. يشوبها حزن لا نهائي. ظهرها على الباب، نظرت إلى "بوا دو بولوني"، إلى الشجر المزدهي، الى الشوارع المتعددة، لم تعد ساعة المخنثين الجماع المدفوع ثمنه. هي بالكاد ساعة الرياضيين، كانوا يركضون، بصمت ونعومة. تراهم وهم يظهرون ويختفون بخفة خلف الاعلانات التي تشير الى مكان سباق الخيول والى جسر سيفر. تتردد الغابة بين الطبيعة والمدينة، لم تكن لا متوحشة ولا متحضرة، إنها موشاة برغبات البشر، بحاجتهم الى الفضاء وخوفهم من غير المروّض، نمرّ سريعا من الرغوة الى القطران، من البحيرة المتجمدة الى المقاعد المدهونة، كانت غابة معدة لا تفاجىء أحدا.

شعرت بالبرد. كانت وحيدة. السماء بيضاء، منسية من الشمس وانعكاساتها، سماء بدون اسم لا تشير الى شيء. كان صباحا عاقلا، وقتا عقلانيا، وغياب خوفها لا يفيدها بشيء إذ أن العراك هنا لا معنى له. لم يكن هناك لا صديق ولا عدو، ما من خصم على مقاسها، ما من حب على غير مقاسها.

فتحت الباب من جهة العابرين، من جهة صندوق القفازات، امسكت بالهاتف النقال التي تفوح منه رائحة النيكوتين، مسحته بكمها، وبدأ قلبها بالخفقان السريع، عاد هذا النور الصغير الى اعماقها، نبض الأحاسيس، الايقاع العميق لطبل يضرب عليه، جلد مشدود فوقها، راحة يدها تضرب لكي تعلن عن مجيء النهار، تضرب بينما كانت تطلب رقم باتريك، وفي أعماقها يتسلق السلطعون من أعماقها. ألم الرأس، الأصابع المترددة، كما لو أنها انحلت من أطراف ذراعيها. أخيرا الخطر، غير المتوقع أخيرا.

- آلو...؟

صوت باتريك القلق، الذي لا يزال نائما لكن المترصد، العدواني تقريبا، الصوت الذي لم يكلمها بعد، الصوت الذي يعرف دائما رقم المتصل.

- هذه أنا.

آه، كم تحب أن تقول ذلك، أن تقوله له وحده ومن أجله فقط. هذه أنا، والأنا تصبح متعاظمة، تحتل المكان كله. هذه أنا. معك اصبح انا، بفضلك اعرف نفسي واعترف بنفسي وتستطيع أن تعطيني كل الأسماء التي ترغب فيها: شمسي الصغيرة، جمالي، حبي، سنجابي، قطتي الصغيرة المتوحشة، سأكون أنا وأنا أيضا،

الألقاب الحمقاء والرائعة ستكون هيلين، هذه انا، بفضلك أستطيع أن أؤكد ذلك، أن أعلنه، هذه أنا، معك، عبرك، من أجلك، هذه أنا.

- أنا في الغابة. عند طرف الشارع، طريق الإيغلانتيه، هل تعرفه؟ بعد تقاطع الطريق...

- أعرفه، لكن ما الذي تفعلينه هنا؟

- تعال!

أقفلت الخط، على الحياة أن تكون هكذا دائما. بصيغة الأمر. تعال! احبني. انتظرني. فاجئني؟ قبّلني. هذه انا. متّعني. اشر اليّ. فضّلني. هذه انا. الحق بي. تعال!

وسيأتي. سيطيع. تعرفه. يخاف جدا من أن تدق على بابه، هي التي تجرأت اليوم على الاقتراب منه، على استدعائه. سيرفع التحدي. سيقبل المبارزة.

وضعت رأسها بين يديها، فركت جفنيها، مسدت صدغيها، وضعت خصلة شعرها وراء أذنها، حركات جافة وسريعة، كي تتوقف عن الارتجاف، كي تسيطر على هذا الجسد الذي يهرب في القلق، في العصبية... ماذا ستفعل الآن؟ماذا ستقول له، ما الذي تريده منه، ما المأخذ عليه؟ هل تشير الى انه خطيبها، رجل قلق في ثياب البطل، شخصية رئيسة في رواية لا يتحدث عن نفسه لكنه يحمل اسمه؟ ماذا تريد؟ أيعود مخلوقها؟ أيتبع البروتوكول، الوصايا العشرة لشغفها، حيث أن الوصية الأولى بالتأكيد ستكون "لن تضحك مجددا؟" ما الذي تنتظره من هذا الممثل المتزوج ورب الأسرة، في هذا السبت من نوفمبر في "بوا دو بولوني"؟ ما الذي تتأمله غير أن تراه أمامها والى أي درجة أخطأت في ذلك؟ مجنونة أنت يا عزيزتي، يا عزيزتي الصغيرة، قلت لك أن تحتفظي بقلبك في العلبة، ارحلي، ارحلي توّا قبل أن يأتي البديل، شكل

العشيق، مظهر الحبوب، لكن حضوره، بدون الاضاءة والكاريزما، بدون القدرة والوجدانية، ارحلي، لم تكن الحقيقة جميلة يوما كي نراها، استقلّي دربا في هذه الغابة، لا يهمّ أي واحد، وتوهي في بولوني، وأضيعي نفسك على جسور السين، اركضي يا عزيزتي الصغيرة لتجدي مجددا وحدتك المجيدة، ابري اقلامي، ابصقي المناظر الطبيعية، اخترعي، أعيدي دهن كل شيء بألوان عصابك، هيا يا هيلين، اركضي، يا سنجابي، يا شمسي الصغيرة، يا جمالي، يا حبي...

- يا قلبي، ما الذي تفعلينه هنا؟ هيلين، ما الذي يحدث لك، ما الذي تفعلينه هنا؟

كان أمامها. حقيقي ولم يتبدل، غريزيا تعرّف إليه جسد هيلين كحليف، كتوأم في الدم، ذاك الذي يعرف كيف يشبعها ويجعلها مسالمة، بقي جامدا أمامها: ارتيابها، تعبها، ضياعها، لن يفهم ذلك. نظر اليها وأحاله الشك أخرس. تستطيع أن تتكهن، أن تتذكر بدقة رائحته، هذه الإلفة الساخنة المليئة بالتوابل، هذا السكر الخفيف التي تسقط فيه غالبا، إذ أنها معه شطّت بعيدا عن الحياة اليومية، قريبا من الحلم، وهبته ثقتها واهمالها، ظنت أنها اخترعته، لكنه هو الذي امتلكها، تراه في نظرتها، إنه هو الوديع، الإناء، وهبت نفسها اليه وأخذها، وهي الآن لا شيء، تعيش من دونها، سرقها،اغلق عليها الى الأبد داخل عينه السوداء، انها موجودة في هذه الحدقة، لذلك هي فاغرة وبدون أمل وبدون خوف: كيف نخاف حين نتوقف عن أن نحيا؟ تريد أن تستعيد ذاتها، تريد أن يعيدها، هنا الآن، هذه

انا، اعدني الي، اعد لي هيلين، اعد لي حياتي! لكنه يمسك بها دائما ورأت العين تقترب وتتسع، انها مليئة بذاتها، بدون براءة، نظرة خاصة وبدون صدع، تراجعت قليلا، مسيطر عليها بتنويم عينه المغناطيسي، اصطدم ظهرها بصندوق السيارة، وكلما اتسعت العين كلما صغرت، حملها السيكلوب، لذلك استدارت للحظة، بدون تفكير، بدون أن ترغب في ذلك، فتحت الصندوق بدون تردد، رأت الفوط، العلب البلاستيكية، بندقية الصيد، كما لو كانت ترى اشياء مألوفة وضرورية. استمر ذلك لثواني، زمن تنهيدة، ومن ثم وقفت أمام باتريك مجددا، لكن البندقية في يدها هذه المرة.

بينها وبينه الآن، هناك الموت. المجرد. الآني.

كي لا يعودا ابدا الى الأيام العادية. كي لا يشاركا مجددا في حفلة الجماع المشتركة.

كانت تحمل البندقية في يدها، الذراع مصوّبة نحوه كما لو أنها تدعوه الى رقصة فالس.أتذكر يا حبي كم رقصنا معا.أتذكر الموسيقى التي كانت تخفق في اعماقنا وانت تقول "اتبعيني، دعيني اقودك"، لكني أنا هذا الصباح من يفرض الايقاع. العين السوداء على جناح الملاك وانا الذي تنظر، لكني هذا الصباح سأقلبك، سأطرحك أرضا، ولن تكون هناك لا ضحكات ولا امتلاك، لن كون هناك لا جحود ولا خوف. في يدي يدك الشبح، دعني أقودك.

كان امامها، هو الذي عرفها، الذي احبها... والتي لم يخترها.

حب بدون منزل

سجن مفتوح.

حرية المتعجرفين. وكان يتردد بين أن يتكلم أو أن يسكت، أن يوافقها أو أن يعارضها. يتردد أنها كانت امرأة جديدة. رأى أنها تشعر بالبرد، رأى تعبها، تصميمها الهش، ومع ذلك لم يتعرف اليها في ضعفها، انها هي التي ترفع يدها، تمد ذراعها، وامام هذا السلاح لا يعرف شيئا.

كان يجيد التكلم مع هيلين. كانت هناك مسامحات عديدة بينهما، عودات كثيرة. عرفا ذل الخطوات الأولى، الكلام بدون أحكام، الرأفة الأبدية العائدة لاؤلئك الذين يتأخرون في استعادة بعضهما.

رغب في ان يذكّرها بذلك، في ان يعيدها الى هذا الفضاء الرحيم، لكن البندقية تحكم على كلامه.

رغب في ان يفتح ذراعيه واسعا، أن تأتي وان يتعانقا مثلما فعلا غالبا، بصمت، بثبات تقريبا، في الاستقبال والقبول اللانهائيين.

لكن البندقية أوقفت اندفاعه.

ينظر اليها. ربما لتذكّرها هذه النظرة بما يستطيعان القيام به، هذا الرجاء الذي اعطي لهما. هذا الحب الغاضب. الوحيد.

لكن البندقية تنتصب بينهما كي تجلبهما الى هنا حيث لم يذهبا ابدا. كان سيد النسيان. اعطي لهما السلطة والخوف.

كان في يد هيلين مثل فاكهة الحب المحرمة.

يشعران الآن بالعار. لا يعرفان الآن الى اين يذهبان.

لذلك أطلقت النار.

كي ينفجر كل شيء.

كي يتوقف كل شيء.

أطلقت النار. مرة. مرتان. ثلاث مرات. عبر الوميض والخوف.

هما الوحيدان اللذان يعرفان هذه الثورة. هما اول من عاشا كأنهما يهربان، كأنهما يركضان من انفجار.

كانا الحب الأول.

الأمل الأخير.

ومن ثم السقوط.

الرجل على الأرض. بين الحياة والموت. بين السماء والطين.

كان على الأرض وستختفي حياته عما قريب، وقصتهما التي لم تكتب، التي لم تعش. وضحكاتهما وقبلهما واماكنهما وآمالهما وزمنهما... الزمن الذي لا ينتمي الا اليهما. انتهى زمنهما.

كان على الأرض والسماء تبدو عالية، بعيدة، صامتة. يفتح السر من دون ان يبوح به. يكبر الشك بدون أن يقدم ملجأ، والرجل ثقيل على الطين أمام هذه السماء المرفوضة.

كان على الأرض ودمه يسيل داخله مثل حزن مكبوت. تمددت هيلين فوق حرارته، فوق رائحته، فوق ارتعاشاته الأخيرة. لم تكن تسمع لا الأصوات حولها ولا أناشيد الصفارات الزرقاء. لم تكن تسمع لا الحياة التي تتحرك ولا الضحكات الهيستيرية

ولا الصرخات المخنوقة. تتمدد فوقه هو الذي يفرغ منها ومن حياتها، كانت فوقه، في اللحظات الأخيرة قبل أن ينمحي الى الأبد... يا حبي... ليتركها، ليتحول عنها... يا حبي، خذني معك... لكنه كان يشحب، يهرب... يا حبي، خذني معك، لكنه، وبدون أي شكوى، أي تنهيدة، أي نقطة دم... يا حبي، خذني معك... لكنه، مثل بهيمة مذبوحة.... يا حبي...

يا حبي كم اشتاق اليك.

لكنه، كان بين السماء والوحل...

شغف

رواية

فيرونيك أولمي

شتمني الضابط قبل أن يصدر أمره للجنديين بأن يضعاني في السيارة العسكرية . هكذا وجدت نفسي بينهما مجددا. بدأ "الجيب" سيره. أثارت في الارتجاجات رغبة التقيؤ. وضعت يدي على كتف الضابط الجالس قدامي وقلت له بصوت خسيس:

– سيدي...

نظر إليّ الضابط نظرة مليئة بالكراهية. ومن جديد بدأ بالصراخ:

– إن الكومندان ينكح أختك!

خيط من المياه الباردة على وجهي يغسل من على شفتيّ ومنخريّ وعينيّ طعم الدم الفاتر، رائحة الطين اللزجة، ظلمات الليل الثقيلة. تعتريني رعشة. عليّ الاقتناع بأن روحي قد عادت وبأن الجن قد رحلت. عليّ أن أفتح عينيّ في هذه اللحظة... تحت الألم الواخز ينثني جفناي أكثر. أشعر بعينيّ تتحركان تحت جفنيّ. هل أستطيع أن أحرّك ذراعاي؟ إنهما يتحركان. هل يمكن لي أن أستيقظ؟ ربما.

حين سكبت الماء، طردت بارفانا الجن. نجحت روحي في الهرب من أحذية الجنود. انتزعت من الطين وها هي الآن تتسلل بخفة إلى جسدي، بيد أنها جريحة ومغتالة. هذا ما يدعى "إتحاد الجسد والروح". يشعر جسدي بعتمة روحي.

– هل تشعر بتحسن يا أخي؟

– بارفانا؟

لا يرنّ صوتي المحطم إلاّ في داخلي.

– هل تستطيع النهوض؟

كلا، هذا الصوت ليس صوت بارفانا.

– من أنتِ؟

– ماذا؟

إنها لا تسمع. عليّ أن أسترد أنفاسي. الهواء، اللاذع، يحيي جراح روحي، يشعل الألم حلقي. عليّ أن أفتح عينيّ. برغم الألم، فتحت جفنيّ.

لم أر سوى السواد مجددا. هل يمكن أنني ما زلت أحلم بعد؟

ISBN 978-9953-87-286-5
9 789953 872865

منشورات الاختلاف
revueikhtilef@hotmail.com

SR 16-00



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com